الجزء الحادي عشر والثاني عشر ٢٥٣،٢٥٤ المجلد الحادي والعشرون



تشرين الثاني وكانون الأول سنة ١٩٤٦ ذو الحجة ١٣٦٥ والمحرم ١٣٦٦

المؤلفون في الشام

كان العصر الماضي من أشأم العصور على العالم العربي ضعفت فيه اعمال العقل وتراجعت حركة التفكير وفسدت اساليب الكلام المنثور منه والمنظوم . طمست معالم القديم او كادت والناس لا يعرفون كيف يأخذون انفسهم بالنظام الحديث . ولم يبق من ذاك الماضي المجيد سوى بقايا علوم دينية ولسانية حفظت بقوة التسلسل من ذاك العهد الزاهر الذي امتد من القرن الأول الى القرن السادس من الهجرة . وكان عظيماً في كل مظاهره في الأصقاع العربية . وابتدأ عصر الانحطاط العلمي بالمئة التاسعة وانتهى بالمئة الثالثة عشرة ولكنه انحطاط اشبه بنار تحت الرماد تخبو ثم تتقد . ولما انبعثت النهضة الحديثة كانت الشام كسائر الأقطار العربية تغط في جهلها غطيطاً رثى لها منه حتى العدو الشامت . ويكفي في اثبات جهلها ان الطباعة انتشرت في القرن الخامس عشر للميلاد في بلاد الغرب وطبع علماء المشرقيات هناك بعض كتبنا العلمية والأدبية باللغة العربية ونحن لم نعرف شيئاً عن الطباعة الا بعد أكثر من مئتي سنة وما علمنا بما طبعه الغربيون من تراثنا العظيم الا بعد أحقاب طويلة .

الجهل يخرب البيوت العامرة . وعجيب من سلطان هذا الجهل الذي خيم على القلوب والأفكار أعصاراً وأصيبت به جميع أوضاعنا كيف نجا من براثنه الغليظة بعض أفراد احتفظت نفوسهم بشيء من بريق الحقائق وتجلى استعدادهم للاخذ بطرق الرقي واسباب التجدد في عهد بلغ من خمول العقول فيه وفتور الهمم ان كان بعض المنورين يحفظون القرآن كالببغاء ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه ولا يبحثون عن اصوله وفروعه ، ويتبركون برواية الحديث ويخلطون سليمه بسقيمه ويدرسون العروض ولا ينظمون الشعر ويقرأون ما يطلقون عليه علم المعاني والبيان والبديع ولا يحسنون كتب خطبة مؤثرة ولا صفحة مفهومة ، وبيانهم سجع مزعج ، وشعرهم سخيف ، ويستظهرون قواعد النحو ولا يتلون جملة صحيحة ويتدارسون دساتير التصريف ولا يصححون الرسم ولا الاملاء . ويعظ الوعاظ ويخطب الخطباء ولا يحسنون قراءة آية على وجه صحيح ولا يجودون القرآن ولا يحسنون ترتيله .

ولقد ادركت قضاة لا يحسنون كتابة سطر صحيح ويعجزون عن أخذ حكم من الاحكام الموجودة في الكتب ، ورأيت الأمية تكسوهم من فرقهم الى قدمهم ، وليس لهم من لوازم مناصبهم الا الشعار والجبة الفضفاضة . وليس هناك اطباء ولا صيادلة ولا مهندسون ولا محامون ولا فلاسفة ولا رياضيون ولا فلكيون دع العلوم الأخرى التي امتاز بها الغرب وكانت سبب تفوقه ، وظلت بلادنا منها صفراً بضعة عصور فأتت على اكثر قواها الحيوية ، وهي راضية عن عمايتها لا تتلمس سبيلاً الى الخروج منها .

وبينا كان المسلمون يتهافتون على تعلم اللغة التركية لتولي اعمال الدولة ويكادون ينسون لغتهم وقوميتهم راضين مختارين كان المرسلون الاميركان واللاتين ينشئون في بيروت وبعض قرى لبنان للدعوة الى البرتستانتية والكثلكة مدارس تعلم اللغة العربية في جملة ما تعلم وذلك منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر على حين كان هذا اللسان في حالة النزع في أمهات البلاد الداخلية ،

وبفضل النهضة التي أحدثها هؤلاء الغرباء الأعاجم في بلادنا وبعوامل أخرى جاء بها الزمن نشأ بين ظهرانينا أفراد تشعبت نفوسهم بحب العلم فعدوا مفخرة للآداب امثال عبد الغني الميداني محمود حمزة احمد فارس يوسف الاسير ابراهيم الأحدب عبد القادر الحسني امين الجندي ناصيف اليازجي ابراهيم اليازجي بطرس البستاني ابراهيم الحوراني عبد الله البستاني سعيد الشرتوني اديب اسحق رزق الله حسون ميخائيل مشاقة يوسف داود يوسف الدبس محمد الطنطاوي .

وكثر عدد المؤلفين في بيروت حاضرة لبنان قبل غيرها من الحواضر لأن مدارس الأجانب والمدارس الطائفية الوطنية عنيت بتعليم العربية ، وظهرت الصحف في بيروت وأنشئت المطابع فيها قبل غيرها من المدن وأخذ القوم في الساحل يتلقفون اللغتين الفرنسية والانكليزية ويحتكون بالأجانب ويتقبلون مدنيتهم بصدور رحبة وبدأ الغرام يزيد بقول الشعر وكتابة المقالات والقاء الخطب .

وكان من أول الرجال الذين تنبهوا الى اهمال المسلمين لغتهم وحاولوا جبر هذا النقص بكل حيلة عالم عصره الشيخ طاهر الجزائري فانه سعى فأنشأ المدارس الابتدائية الحكومية في ولاية سورية العظيمة ثم عاون معاونة فعلية في انشاء المدرسة الثانوية في دمشق وأسس دار الكتب الظاهرية بدمشق ودار الكتب الخالدية في القدس . وكان يؤلف كتب التدريس للمدارس الابتدائية وبعض الثانوية ولم ينشر كتبه الخاصة التي كان فيها هوى نفسه وآثر ان يضع الأسس للمدارس فيتعلم الناشئة ومنهم يكون العالمون والمؤلفون في المستقبل .

ولا أغلو اذا قلت ان معظم من تعلموا وكانوا على نباهة تؤهلهم للأخذ بتعاليم هذا العالم العامل هم الذين يتولون اليوم مناصب التدريس والادارة على اختلاف ضروبها وعم حركة البلاد في علمها وصناعتها وتجارتها وزراعتها . ومن لم يأخذ عن الشيخ الجزائري مباشرة أخذ عنه بالواسطة ، ومن لم يقرأ كتبه ويحضر مجالسه انتفع بكتب تلامذته ومجالسهم . وما بلد في الشام من بحرها الى

باديتها ومن عريشها الى فراتها تخلو من رجل تخرج به واقتبس من نور علمه واخذ عنه ما ساعدته قريحته وذكاؤه .

وللشيخ من الكتب المطبوعة (توجيه النظر الى أُصول الأثر) و (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) وهذا هو المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره ، وتفسيره مازال في المخطوطة المحفوظة في دار الكتب الظاهرية في اربعة مجلدات . ومنها (التقريب لأصول التعريب) و (شرح خطبة الكافي) وهو معجمه اللغوي ضاع أكثره و (شرح خطب ابن نباتة) و (رسائل في علم الخط) و (جدول الحروف العربية القديمة والحديثة والهندية واليونانية الخ) . وكان الشيخ يتقن الفارسية والتركية والقبائلية ويلم بالفرنسية والعبرية والسريانية والحبشية . ومن تآليفه (اتمام الانس في عروض الفرس) و (ارشاد الالبا الى تعليم الف با) وهو كتاب في علم التربية . و (بديع التلخيص وتلخيص البديع) و (تسهيل المجاز الى فن المعمى والألغاز) و (التمرين على البيان والتبيين) و (الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية) و (الحكم المنثورة) و (دائرة في معرفة الاوقات والايام) و (عمدة المغرب وعدة المعرب) و (الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام) وهو كتاب في الطبيعيات سماه بهذا الاسم لئلا يستريب منه المتزمتون المتعصبون . و (مدخل الطلاب الى علم الحساب) و (مد الراحة لأخذ المساحة) و (التجريد) وهو تدريب اللسان على تجويد البيان ، و (منية الاذكياء في قصص الأنبياء) و (ميزان الافكار شرح معيار الاشعار) و (مختصرات أمثال الميداني) و (مختصر شرح كتاب أمنية الالمعي) و (مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة) . ومن اهم الكتب التي ضاعت أكثر اجزائها كنانيشه لما عاد من القاهرة الى دمشق بعد تغيبه في مصر ثلاث عشرة سنة وفي كنانيشه خلاصة ما قرأ من المخطوطات وملاحظاته عليها وله مجموعة في مجلد ضمنها ذكر ما يجب احياؤه بالنشر من المخطوطات العربية الموزعة في خزائن الشرق والغرب . ولا يبعد ان يكون للشيخ تاريخ دون فيه ما سمعه ورآه فانه كان له

في فن السياسة وعلوم الاجتماع ولا سيما ما كان له علاقة بالحضارة الغربية يد طولى . ومما الفه وبقي مخطوطاً (الالمام بأصول سيرة النبي عليه السلام)و(مقاصد الشرع) . وقد نشر الشيخ كثيراً من كتب البلغاء أمثال كتاب (الحنين الى الاوطان) للجاحظ و (الادب الصغير) لابن المقفع و (روضة العقلاء) لابن حيان البستي وكتاب (الادب والمروءة) لصالح بن جناح . ومنها (ارشاد القاصد) لابن ساعد الانصاري (وتفضيل النشأتين) للراغب الاصفهاني و (الفوز الاصغر) لابن مسكويه . هذا الى ما نشره من هذا القبيل وكله مما علق عليه وشرحه فضلاً عن الكتب القديمة التي نشرت بعنايته وارشاده في مصر والشام وهي كثيرة . وللشيخ فوق هذا مقالات علمية كثيرة نشرها في المجلات المصرية والشامية وأكثرها بدون توقيعه .

أليس هذا الشيخ مثلاً أعلى للمؤلفين المحدثين ، ألا يحق لدمشق ان تفاخر بأن كانت مثابة علمه ومنبعث نبوغه في هذه المئة الرابعة عشرة ، كما كانت في المئة السالفة مباءة نبوغ أعظم فقهاء عصره السيد محمد عابدين صاحب الحاشية المشهورة والفتاوى المحررة الذي نظم علم الفقه بنظام دقيق قرّب مناله على الدارسين كما نظم طاهر الجزائري في هذا الجيل حركة النهضة العلمية وما ذهب من هذا العالم حتى رأى تلاميذه يؤلفون ويشتهرون في العالم العربي والغربي بتآليفهم .

أما في الساحل فقد حاول بعض رجال النهضة فيه ان يلبسوا العلم العربي ثوباً جديداً تخيلوا فيه النفع لفئة مخصوصة اكثر من الطرق القديمة فأنشأوا يحذفون من الكتب الاسلامية ما لا يروقهم ويصوغون الأدب في قالب وقع استحسانهم عليه حتى انهم وضعوا في أوقات مختلفة سبعة معاجم عربية منها (محيط المحيط) (قطر المحيط) لبطرس البستاني و (أقرب الموارد) لسعيد الشرتوني و (البستان وفاكهة البستان) لعبد الله البستاني و معجم الطالب والمنجد والمعتمد ومنجد الطلاب نقلوها من أمهات المعجمات المشهورة وعرّوها عما استبشعوه من الفاظ زعموا انها نابية عن الادب العصري الحديث .

ومن أهم ما نشره بطرس البستاني وبعض النابهين من أسرته (سليم ونجيب وسليمان) دائرة المعارف العربية وهو عمل عظيم كان له في الاقدام على تأليفه فضل السبق فهو مؤلف اول معلمة عربية وساعد على نشرها الخديوي اسماعيل جد جلالة فاروق الاول ملك مصر ولم يصدر منها سوى احد عشر جزءاً ضخمة . ومهما يكن فهذا الكتاب العظيم عنوان الجد السوري وراموز الولوع بالعلم والغيرة على نشره ولم تقدم مصر على مثل هذا العمل الى اليوم مع وفرة أسباب التأليف فيها اكثر من سورية قبل ستين سنة . ولا غرو فان لبني البستاني أيادي بيضاً على الآداب في هذه الديار خدموها بأقصى ما وصلت اليه طاقتهم وساعدتهم بيئتهم . وممن اشتهر منهم سليمان مترجم الياذة هوميروس شعراً وضع لها مقدمة ممتعة وكذلك كان شأن نسيبه عبد الله فانه كان اماماً في اللغة الا ان تآليفه ليست على مقدار علمه وممن أخذ عنه تلميذه شكيب ارسلان فبرز في الكتابة والشعر وتآليفه كثيرة ومقالاته اكثر من أسفاره ورسائله تدل على عبقرية نادرة ونشاط عظيم . وتخرج بعبد الله هذا وبالمعلم سعيد الشرتوني وبالشيخ ابراهيم اليازجي والشيخ ابراهيم الحوراني كثير من رجال العصر من المؤلفين المجودين . ومن اشهرهم امين تقي الدين وبشارة الخوري الشاعر وشبلي ملاط ونسيب ارسلان وعادل ارسلان . ونشأ من الشعراء والكتاب والمؤلفين في بيئات أخرى كثيرون امثال قاسم الكستي مصباح رمضان عبد الحميد الرافعي شاكر شقير سليم الجندي فؤاد الخطيب خليل مردم بك احمد تقي الدين رشيد تقي الدين سعيد عقل امين ناصر الدين سليم عنحوري سليمان ظاهر ابراهيم طوقان محمد الشريقي خير الدين الزركلي شفيق جبري طانيوس عبده اديب التقي عمر حمد محمد الهلالي محمد الشهال فخري البارودي عمر ابوريشة انور العطار علي الناصر صالح طه حليم دموس الياس ابوشبكة ايليا ابو ماضي عمر الفاخوري عمر يحيى بدر الدين الحامد سليم قصاب حسن عبد الرحمن القصار امجد الطرابلسي زكي المحاسني عبد الكريم الكرمي جميل سلطان محمد علي

الحوماني محمد سليمان احمد ، احمد عبد الرؤوف الامين عبد الحسين صادق . ومن هؤلاء الشعراء من كان له ناحية بارزة في الأدب ألف فيها وأفاد وكان في الكتابة آية ومنهم الزركلي وجبري ومردم بك والمحاسني والكرمي وسلطان والعطار والتقي

ومن نشأ من المؤلفين في العلوم الطبيعية والطبية والزراعية والكيماوية والرياضية والاقتصادية والفلسفية شبلي شميل بشارة زلزل عبد الرحمن شهبندر منصور جرداق مصطفى الشهابي مرشد خاطر حسني سبح محمد محرم صلاح الدين الكواكبي شوكة الشطي منيف العائدي عاطف المالح جميل صليبا جميل الخاني اسعد الحكيم عبد الوهاب قنواتي احمد حمدي الخياط مصطفى الخالدي جمال الفراوصفي زكريا سامي الحداد فؤاد غصن منير الشريف قدري حافظ طوقان جمال زربق اسكندر بارودي رئيف ابي اللمع جمال نصار شريف عسيران حكمة المرادي أمين معلوف عمر ترمانيني خليل سعادة خليل سعد حسين سري الدين وغيرهم .

ومن المؤلفين في العلوم الادبية والتاريخية والسياسية لويس شيخو عبد الرحمن كواكبي محمد المبارك احمد رضا فيليب طرازي محسن الأمين سليم البخاري سويريوس افرام جرجس همام داود عمون نعوم لبكي نعوم مكرزل احمد عبيد معروف الارناؤط عيسى اسكندر معلوف اسعد منصور فيليب حتي عبد القادر المغربي خليل بيدس امين الريحاني جبران خليل جبران ابراهيم سليم النجار ادوار مرقص نقولا فياض سليم سركيس عبد القادر القصاب عبد القادر بدران خليل طوطح عمر الاتاسي عجاج نويهض عبد الله مخلص نزيه المؤيد ميخائيل نعيمة كامل الغزي راغب الطباخ قسطاكي حمصي سليمان عز الدين جبر ضومط بدر الدين النعساني بندلي جوزي انيس المقدسي يوسف الخازن عمر فروخ مصطفى الغلاييني محي الدين الخياط احمد الصابوني زكريا النصولي عز الدين التنوخي امين سعيد عبد الرحمن الكيالي طاهر النعسان عبد الحسيب الشيخ سعيد ، عمر كحالة عمر الصالح البرغوثي سعيد ابو جمرة بولس الخولي صلاح الدين السعدي يوسف البستاني أسد رستم

جرجي بني فؤاد افرام البستاني يوسف غصوب احمد الكرمي جعفر الحسني عيسى اسعد جميل العظم احمد نصرت الشلق احمد فوزي الساعاتي ابو اليسر عابدين محمود النحاس محمود النجار محمد خير الطباع عبد الحكيم الافغاني سعيد البحرة فيليكس فارس امين السفرجلاني عبد الحميد الزهراوي جميل نخلة مدور حقي العظم انطون صالحاني نسيب شهاب نعمان قساطلي وجيه الكيلاني محمد الفراتي داود ابو شعر عبد الغني شهبندر اسعد خليل داغر محمد علي الجزائري امين ضاهر خير الله جرجي شاهين عطية زكي مغامز محمد احمد دهمان جميل الشطي فائز الغصين سعيد الأفغاني حنا خباز علي الطنطاوي صلاح الدين المنجد ابراهيم الكيلاني اسعد طلس خلدون الكناني سليم قبعين جرجي باز عيسى بندك امين الغريب امين الكيلاني (وهذا كاتب من الطراز الأول في السخرية) فؤاد حمزة عارف الزين خليل تقي الدين نجيب الريس قسطنطين زريق عادل زعيتر عادل جبر داود قربان يوسف ضياء الدين الخالدي محمد روحي الخالدي فيضي العلمي شكيب الجابري جرجس شلحت بطرس البستاني (الخوري) حبيب الزيات سامي الكيالي محمد الحسيني ياسين الحموي يوسف العش نجيب نصار عمر أبو النصر وجيه بيضون شكري العسلي سعيد حيدر احمد كرد علي نجيب صليبا عبد القادر المؤيد محمد الداوودي عبد المجيد المغربي حسن بيهم سليمان مصوبع عبد القادر الكرماني ~~عمر فروخ~~ وغيرهم .

وفي العلوم الفقهية والحقوقية والادارية والاجتماعية والدينية طاهر الأتاسي عبد المحسن الأسطواني جمال القاسمي حسين الجسر يوسف النبهاني ابو الهدى الصيادي سليم باز جرجس صفا اسماعيل الحافظ بد الدين الحسني عارف النكدي اسعاف النشاشيبي سعيد النعسان ناجي أديب حسني عبد الهادي بهجة البيطار نجيب ابو صوان مصباح محرم فارس الخوري سعيد المحاسني عثمان سلطان احمد السمان شاكر الحنبلي احسان الشريف نجيب ارمنازي ابراهيم هاشم سعيد الباني

نجيب خلف محمد علي حشيشو يوسف صادر سامي الميداني محسن البرازي محمد سعيد العرفي فوزي الغزي واصف البارودي محي الدين الخاني عبد المجيد الخاني عبد الحميد الجابري امين عز الدين فائز الخوري صبحي المحمصاني ٠

ويكثر العلماء في هـذه الفروع ولما كان كلامنا لا يتناول الا من ألفوا وصنفوا لم نعرض لذكرهم كما اننا لم نشر الى من ألفوا تآليف مدرسية فهؤلاء كثيرون أيضاً ، وعلى من يعرفهم معرفة احاطة ان يتقدم بالكلام عليهم تنويهاً بفضلهم وحسن بلائهم في خدمة الناشئة ٠

ومن المؤلفات سلمى صائغ وداد سكاكيني ماري عجمي منيرة علي مليحة سعيد نجلا صعب أديبة فارس فلك طرزي نظيرة زين الدين وغيرهن ٠ ولا بد من الاشارة الى أن تآليف المصريين الحديثة اليوم تكتب بلغة أسلس من كتب المؤلفين الشاميين لعهدنا وكانت كتب هذه الديار منذ نحو نصف قرن اعرق في البلاغة من كتب المصريين يومئذ وعلى كل فقد سبقت مصر والشام جميع الأقطار العربيه الى التأليف ويجيء بعدهما العراق وتونس ثم سائر الأقطار وكل قطر لم يكن فيه حظ للغربيين تقل على ما يظهر حركة العقول في أبنائه وقد لوحظ أن حركة التأليف في بيروت فترت بعض الشيء منذ نحو عشرين سنة وهبت هبة مباركة في دمشق لوجود الجامعة السورية والمجمع العلمي العربي وغيرهما من المعاهد والجمعيات الساهرة على نشر العلم والآداب ٠

وبعد فان الانصاف يتقاضانا ونحن في آخر هذا الحديث الا نغفل عن التنويه بفضل من كانوا مثال الغيرة على لغتنا وتاريخنا أولئك الأعاجم الذين نزلوا بلادنا واستعربوا وكتبوا تآليفهم بلساننا وأفادونا بعلمهم وبما ألفوا لنا من كتبهم الممتعة فكانوا من أعظم العوامل في نهضتنا ، امثال فانديك وورتبات وبوسط وبورتر ولامنس وعالي سميث وغيرهم فانهم مهما كانت الغـاية من تآليفهم قد أسدوا جميلاً الى أدبنا فحق لهم ان يدمجوا في جملتنا ويعدوا من عشيرتنا فعلى أرواحهم الذكية منا السلام ٠

ونرسل سلاماً ممزوجاً بالحرمة والاعجاب الى أولئك الذين هاجروا من أبناء هذه الديار الى الاميركتين وتوفروا هناك على نشر لغتنا واصدروا صحفاً ومجلات وكتباً ورسائل وعزّ عليهم ان يخرجوا عن العروبة وما زالوا يدأبون ليحتفظ أبناؤهم بعربيتهم فهؤلاء أهلنا ومفخرة العرب حيث حلوا . وقد رأينا تآليفهم نمطاً آخر من أنماط التآليف الشامية لمكان البيئة التي انشأتهم بعد موطنهم الأول نشأة جديدة وطبعتهم بطابع طريف من طوابع العالم الجديد فعلى من يعرفهم أو يعرف جلهم ان يتفضل فيكتب لنا فصلاً في أعمالهم .

وأختتم هذه العجالة بالاعتذار عما يكون وقع لي من نقص في سرد أسماء المؤلفين فربما فاتني اشخاص لم أذكرهم عند وضع هذا وعلى كل فأنا لا أدعي الاحاطة والاحاطة تتطلب درساً أوفى وأطول .

محمد كرد علي



الأدب العربي في بلاد فارس[1]

(١)

الساميون والايرانيون قبل الاسلام

ليس من قصدي أن أتكلم في الصلات اللغوية والأدبية التي كانت بين الساميين عامة والعرب خاصة وبين الايرانيين قبل الاسلام . فأجتزئ بأن أقول ان الآشوريين والبابليين كان لهم سلطان سياسي ، وسيطرة أدبية على ايران ، ولا سيما غربها منذ الف سنة قبل الميلاد ويتبين هذا في الأمور الآتية :

١ — ان آثار الدولة الفارسية الأولى التي تسميها الآثار الفارسية هخامنشى ، ويسميها الأوربيون الاكمينين وتسمى بأسماء أخرى في اساطير الفرس — آثار هذه الدولة كتبت بلغات إحداها سامية ، وكتبت بخط مسماري مشتق منه الخط الآشوري .

٢ — وان لغة ايران ايام الساسانيين ، اللغة التي تسمى الفهلوية كتبت بخط مأخوذ من الخط الارامي ، واشتملت على كثير من الألفاظ السامية ولا سيما الارامية منها .

وكان من أثر هذا الاختلاط هذا الخط العجيب الذي سماه ابن النديم هزدارش . وهو خط تكثر فيه الكلمات الارامية بل تجد فيه ما لا يستعار من لغة الى أخرى من الضمائر واسماء الاشارة والاستفهام والموصولات وحروف العطف والجر ، وعلامات الجمع والأعداد .

وقد فسر هذا تفسيراً عجيباً ذلكم ان الكاتب بالخط الفهلوي الغامض كان

(١) محاضرة ألقيت في المجمع العلمي العربي ما ١٢ أيلول سنة ١٩٢٦

اذا خشي أن تتبهم الكلمة اذا كتبها باللغة الفارسية وضع مكانها كلمة ارامية تتضح في هذا الخط فإذا أراد أن يكتب «كوشت» مثلاً وهو اللحم بالفهلوية كتب «بسرا» بالارامية وقرأها «كوشت» وان أراد ان يكتب «نان» وهو الخبز بالفهلوية كتب «لحما» بالارامية وقرأها «نان» وهكذا ...

ومعنى هذا ان الكاتب الفهلوي على هذه الطريقة كان يعرف الارامية فيستعين بها في مواضع اللبس .

⁂

وأما العرب فقد جاوروا الفرس وخالطوهم وكان بين القبائل العربية والدولة الفارسية احداث وغير من سلم وحرب ومودة ومعاداة وسيطر الفرس على أقاليم عربية . وقد روي أن سابور الملك الساساني صالح العرب وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوّج والأهواز .

وقد ذكر مؤرخو الفرس أن بهرام كور الملك الساساني نشأ في الحيرة في كفالة المنذر أحد أمرائها وتأدب بآداب العرب وعرف لغتهم ونظم بها الشعر وكان أول من نظم الشعر الفارسي وقد أنكره عليه الموابذة ونهوه عنه .

وكذلك دخلت الفاظ فارسية في العربية وعرف بعض العرب الفارسية ، وكان عدي بن زيد ، وابنه زيد بن عدي يكتبان لكسرى بالعربية والفارسية .

وفي أساطير الفرس صلات كثيرة بين العرب والفرس لها دلالتها .

في العصور الإسلامية

فتح العرب إيران لنشر الدعوة الاسلامية وشمل الفرس عدل المسلمين وإحسانهم ، وسارعوا الى الدخول في الاسلام فعمتهم الأخوة الاسلامية .

قال الطبري : فكانوا كأنما هم في ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم . فاغتبطوا وغبطوا بل أسلم بعض الايرانيين ونصروا العرب في وقائع الفتح . أسلم الديلم بعد القادسية وشاركوا في فتح جلولاء ونزلوا الكوفة ، وشارك أحد

أعيان الفرس في فتح الري وتولاها بعد الفتح . وطلب سياه أحد زعمائهم أن يفرض له كأكثر ما يأخذ عربي ليشارك في الفتح .

وقد انساح العرب في أرجاء ايران منذ عهد عمر ، أذن لهم الخليفة في الانسياح حين ثار أهل فارس والجبال . وقد روى الطبري قول عمر : ألا وان المصرَين (البصرة والكوفة) من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد . وقد وغلوا في البلاد والله بالغ أمره .

وبالفتح صارت لغة القرآن لغة الدولة ولغة العلم والأدب في إيران ، يستعملها العربي والعجمي في علوم الدين وغيرها . وبقيت زهاء مائتين وخمسين عاماً منفردة بالعلوم والآداب لا تشاركها لغة أخرى الا كتب دينية قليلة كتبها المجوس بالفهلوية تبييناً لدينهم ودفاعاً عنه .

وصارت العربية كذلك لغة الخطاب بين المثقفين ، وفي الأمصار الكبيرة ولا سيما في خراسان وغربي ايران .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شرع الفرس يستقلون عن الخلافة في أرجاء من ايران . وكانت دولهم تعظم على مقدار تأخرها زماناً وبعدها عن دار الخلافة مكاناً :

نشأت امارة الصفاريين في سجستان شرقي ايران وامتدت شطر المغرب حتى قاربت العراق وبدأت عهدها بالثورة على الخلافة . وقد قرنت الأساطير الفارسية نشوء هذه الدولة بنشوء أبيات من الشعر الفارسي .

ثم قامت فيما وراء النهر وشمالي إيران الدولة السامانية وقد انتقل مؤسسوها من ولاة للعباسيين الى ملوك مسلّطين يقرون بالطاعة للعباسيين قولاً .

وفي رعاية هذه الدولة التي نشأت في إقليم قصي نشأ الأدب الفارسي وحاولت الفارسية أن تشارك العربية في العلوم والآداب .

فشرع الفرس يترجمون الكتب العربية الى لغتهم كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية الى العربية فترجم تاريخ الطبري وتفسيره مختصرين .

وشرع الفرس يؤلفون بالفارسية ابتداء. ككتاب ابي منصور الهروي في الطب.

وشرع الشعراء ينظمون بالفارسية ونبغ الرودكي السمرقندي أول شعراء الفرس الكبار أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع. وقد ذكرت كتب الأدب الفارسي ثلاثين شاعراً في عهد بني سامان.

وأما الدولة البويهية التي قامت في غربي ايران سنة ٣٢٠ ه واستولت على بغداد بعد أربعة عشر عاماً ودام لها السلطان على دار الخلافة أكثر من مائة سنة فكانت في سلطان الأدب العربي ونظم معظم أمرائها بالعربية، وكان من كتابهم أئمة في الكتابة العربية وحسبكم ابن العميد، والصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، وأبو اسحاق الصابي.

ومما يصح به القياس بين اللغتين في دولة البويهيين أن الصاحب مدحه بالعربية خمسون شاعراً ولم يمدحه بالفارسية إلا شاعران: المنطقي والخسروي.

والدولة الزيارية التي سيطرت على الاقليم الذي بين جبال ألبُرز وبحر قزوين، وهو الاقليم الذي احتجز عن سائر أقاليم إيران واستعصى على العرب سنين طوالاً بعد ان فتحوا ايران — اعني اقليم طبرستان فقد تسمى ملوكها وتلقبوا بالأسماء والألقاب الفارسية مثل: قابوس وكيكاوس.

وقد مدح قابوس صاحب الرسائل العربية المعروفة باسم كمال البلاغة شاعران من شعراء الفارسية: الخسروي والسرخسي. وألف كيكاوس حفيد قابوس كتاب «قابوس نامه» بالفارسية.

وأما الدولة الغزنوية فهي دولة تركية النسب وقد امتد سلطانها على ايران الشرقية والشمالية وبلغت من السطوة ما لم تبلغه دولة قبلها في ايران في العصور الاسلامية. وكان الأدب الفارسي قد ازدهر فاجتمع حول السلطان محمود بن سبكتكين كثير من شعراء الفارسية. والى محمود أهدى الفردوسي الطوسي كتاب — الشاهنامة — المنظومة التي تضمنت أساطير الفرس وتاريخهم منذ العصور الخرافية الى الفتح الاسلامي. وكتبت بالفارسية كتب قليلة: كتب اليميني

الشاعر تاريخ السلطان محمود ، وكتب البيروني كتاب التفهيم في التنجيم بالفارسية والعربية وترجم نصر الله بن عبد الحميد كتاب كايلة ودمنة الى الفارسية .

وحينما امتد سلطان السلاجقة على إيران في القرن الخامس والسادس ، وكانوا تركاً بداة ، كان الأدب الفارسي استحكم ونضج . وقد عدّ عوفي مؤلف لباب الألباب في تاريخ شعراء الفرس أكثر من مائة شاعر عاشوا في ظلال هذه الدولة .

***

نشأ الأدب الفارسي الحديث في أواخر القرن الثالث الهجري ونما وترعرع على مر الزمان ، ونبغ الشعراء والكتاب باللغة الفارسية . فكيف كانت مكانة العربية في العلم والأدب بعد أن نشأ لإيران لغة علمية أدبية :

تختلف أحوال اللغتين في الشعر ، وفي النثر ، وفي كتابة التأليف . أعني في البيان الذي يغلب فيه العاطفة والخيال ، والبيان في الحقائق التي لا شية فيها من العاطفة والتخيل ، وما هو وسط بين هذا وذاك .

فأما الشعر فقد أولع به الفرس منذ نشأت لغتهم ، وكثر الشعراء على مر العصور ، ونبغ عظماء الشعراء فيستطيع مؤرخ الأدب أن يعد منذ القرن الرابع الهجري من أئمة الشعر الفارسي من لا يجد نظيرهم كثرة ومكانة من شعراء العربية في ايران ولقي هؤلاء الشعراء من الملوك تأييداً وتشجيعاً فالتفوا حولهم ونظموا لهم القصائد والقصص المطولة .

ولكن الشعر العربي لم يضمحل بظهور الشعر الفارسي بل بقي مزدهراً شائعاً في أرجاء إيران . عد الثعالبي في الجزأين الثالث والرابع من كتاب اليتيمة مائة وواحداً وخمسين شاعراً نظموا بالعربية في عصره . وهؤلاء أكثر من كل من ذكرهم محمد عوفي في لباب الألباب من شعراء الفارسية منذ نشأ الشعر الفارسي الى حين تأليف الكتاب .

وقد ألف في أوائل القرن السابع الهجري وعدد صاحب دمية القصر ثلاثمائة

شاعر بالعربية وسنبين بعدُ أثر الشعر العربي في هذا الشعر الفارسي الذي زاحمه منذ القرن الرابع كما قدمت .

ويدل على أن إيران بقيت إلى غارات التتر على الأقل ، موطناً رحيباً للشعر العربي أن ثلاثة من كبار شعراء العرب عاشوا فيها ووجدوا مجالاً ومستقراً . وحسبنا أن ينشأ في إيران في القرن الخامس الشاعر القرشي الأموي ، الذي أشاد بمجد العرب وأخلاقهم وأدبهم ، ومثل في شعره طموحهم وإباءهم ، وصور مواطنهم وعاداتهم وبيئاتهم وهو أبو المظفر الأبيوردي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ فقد نشأ في أبيورد من خراسان ونبغ في الشعر هناك وتردد من بعد بين العراق وإيران ومدح خلفاء العباسيين وأمراء العرب من بني صدقة أمراء الحلة وغيرهم ومدح ملوك الدول الأعجمية كذلك . وما يخرج شاعراً كالأبيوردي إلا موطن للأدب العربي خصيب ، وجناب للغة العرب رحيب .

والشاعر الثاني القاضي ناصح الدين الأرجاني ينتسب الى أرجان في إقليم فارس وهو الصقع الجنوبي الغربي من إيران وهو شاعر أنصاري يُعدّ من كبار شعراء العربية ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٥٤٤

وأدل من هذين على تمكن الأدب العربي في ايران حتى القرن السادس الهجري أن أبا اسحاق الغزي الكلبي هاجر من بلاد العرب الى إيران فأمضى النصف الثاني من عمره فيها ومات بها ومدح كثيراً من ملوكها ورؤسائها . ولد الغزي سنة ٤٤١ وتوفي سنة ٥٢٤ .

***

والنثر يخالف الشعر وقد بقي السبق فيه للعربية الى غارات التتر سواء في هذه الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة المعروفة بالأخوانيات . وقد حاكى الفرس كتاب العرب ولم يدركوا شأوهم .

ولسنا في حاجة الى بيان مكانة الكتابة العربية في دولة بني بويه ، وحسبنا ان نذكر من وزراء هذه الدولة أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد .

ولم تكن العربية دون الفارسية فيما وراء النهر في دولة السامانيين . ونجد نتفاً من الأخبار تدل على أن كبار كتاب الدولة كانوا يكتبون بالعربية : مثلاً الاسكافي كاتب نوح بن منصور الساماني كتب حينما هزمت الجيوش السامانية ماكان بن كالي : «وأما ماكان فقد صار كاسمه والسلام» .

وأحمد بن الحسن الميمندي ، وزر للسلطان محمود الغزنوي ولابنه مسعود عشرين سنة ، وكان يكتب بالعربية في هذه البقعة النائية . ومن توقيعاته المأثورة ما كتبه لجماعة طلبوا أن يحط الخراج عنهم : «الخراج خراج ، دواؤه أداؤه» .

ومن الدلائل على أن العربية كانت ذات المكانة الأولى في دواوين هذه الأصقاع وان كانت لغة العامة العجمية أن أحد وزراء الغزنويين اتخذ الفارسية لغة الدواوين ، ولو ان العربية كانت غريبة في تلك الأقطار لوجد هذا قبولاً ، واستمرت الدواوين بالفارسية لغة البلاد . ولكن الوزير احمد بن حسن الميمندي ردَّ الدواوين الى العربية . ومن الممتع في هذا ان نقرأ ما كتبه في هذا الصدد العتبي الذي كتب تاريخ محمود بالعربية مسجوعاً كله . قال في كتابه :

«وكان الوزير ابو العباس قليل البضاعة في الصناعة لم يعتن بها في سالف الأيام ، ولم يرض بنانه بخدمة الأقلام ، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية الى الفارسية . حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الاجادة والاحسان . واستوت درجات العجزة والكفاة ، والتقى الفاضل والمفضول على خطي الموازاة .

ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل ... عزم على أوشحه ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه وعجزه عن فهم ما يتعرب به عليه» .

فهذه حال العربية في أفغانستان في القرن الخامس الهجري .

وأما الرسائل الاخوانية فلم تبلغ الفارسية فيها هذه القرون مبلغ العربية . ولم تنشئ الفارسية كاتباً كبديع الزمان والخوارزمي وابن العميد وأبيه والصاحب ورشيد الدين الوطواط .

وكان البديع والخوارزمي يكتبان بالعربية الى أمراء البلاد وأعيانها شرقاً وغرباً كأنهم في بلاد العرب ولولا معرفة المكتوب اليهم العربية وتقبلهم هذه الرسائل بقبول حسن ما كتب كتابها بالعربية ٠

***

ومما يبين ما بين اللغتين من صلات في تلك العصور الترجمة من العربية الى الفارسية ، والانشاء باللغتين ٠

ولم تقتصر الترجمة على الكتب التي ألفت بالعربية قبل أن تكون الفارسية لغة كتابة كالطبري وكليلة ودمنة بل ترجمت كتب وضعت بالعربية بعد ان صارت الفارسية لغة تأليف كتاريخ بخارى للنرشخي ٠ كتب لنوح بن نصر الساماني سنة ٣٣٢ وترجم الى الفارسية ٥٢٢ ٠ وكتاب اليميني الذي ألفه العتبي للسلطان محمود بالعربية ترجم من بعد الى الفارسية ٠

وكتب كثير من الأدباء باللغتين شعراً ونثراً وسمي كل منهم ذا اللسانين (دوزبان) وعطاء بن يعقوب له ديوانان عربي وأعجمي ٠ وللبستي والباخرزي شعر فارسي ولابن سينا والشيخ سعدي الشيرازي بل بديع الزمان الهمذاني نظم بالفارسية قليلاً ٠

ويقول صاحب المعجم في معايير أشعار العجم وقد ألفه في أوائل القرن السابع ان شعراء زمانه يعرفون اللغتين والحق ان معظم شعراء الفرس كانوا يعرفون العربية على اختلاف حظهم منها ٠ وكثير منهم أنشأ بها كثيراً أو قليلاً ٠

على أن أمر العربية كان يضعف على مر الزمان شيئاً فشيئاً فمؤلف كتاب راحة الصدور في تاريخ السلاجقة يروي شعراً عربياً ويقول ان قليلاً في زماننا من يفهم مثل هذا الشعر ٠

ويقول عوفي في أوائل القرن السابع ان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل فارسي يعرف العربية وقد ألف كتابه في العروض بالعربية فنقم عليه أدباء زمنه فكتب ما يتعلق بأشعار العجم بالفارسية ٠

وأما اللغة العلمية لغة التأليف فقد كانت العربية مسيطرة عليها الى غارات التتار ثم شاركت فيها بعد التتار، وما زال التأليف بها يقل على مر الزمان ولكنه لم ينقطع حتى عصرنا هذا .

وقد قال أبو الريحان البيروني ان الكتاب إذا ألف بالفارسية ذهب بهاؤه، وقال ان لغته الخوارزمية وان الفارسية والعربية سواء لديه ليست احداهما لغته ولكنه يرى الفارسية لا تصلح للتأليف .

قال : « والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة .

وقال : والهجوُ بالعربية أحب اليَّ من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسودَّ وجهه، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة الا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

وقال أبو هلال العسكري في القرن الرابع :

ولا تعرف اليوم علماً جاهلياً ولا اسلامياً الا وأهله عربيون ومتعربون يكتبون باللفظ العربي والخط العربي .

وإذا نظرنا الى جماعة من كبار المؤلفين كابن سينا، وابي الريحان البيروني، والغزالي، والرازي، والزوزني والبيضاوي ونصر الدين الطوسي وهم من مؤلفي القرون الرابع، والخامس، والسادس، والسابع وجدنا لغة التأليف عندهم العربية لم يكتبوا بالفارسية إلا كتباً صغيرة لا تقاس بما كتبوا بالعربية .

فابن سينا وتأليفه بالعربية لا يحتاج الى بيان، كتب بالفارسية دانش نامه علائي لعلاء الدولة كاكويه أمير أصفهان .

والبيروني كتب بالعربية كتبه الخالدة وكتب بالفارسية كتيباً في التنجيم وكتبه بالعربية أيضاً .

والغزالي لا يعرف له بالفارسية إلا كيمياء السعادة وقد كتبها بالفارسية

لإفهام العامة كما يقول . وكتاب آخر يسمى نصيحة الملوك كتب بالفارسية كذلك .

والرازي له ثلاثة وثلاثون كتاباً منها واحد بالفارسية .

والبيضاوي له كتاب بالفارسية صغير اسمه نظام التواريخ ، وسائر مؤلفاته بالعربية .

والطوسي ، وهو من علماء القرن السابع وقد صحب هولاكو ، له زهاء خمسين كتاباً قليل منها فارسي .

وقد استمرت العربية لغة للتأليف في إيران بعد غارات التتار على تقلب الغير بها وتحيف الزمان إياها . ولم يخل عصر من التأليف بها الى عصرنا هذا . وحسبنا أمثال صدر الدين الشيرازي والسيد الشريف الجرجاني وسعد الدين التفتازاني .

أثر العربية في الفارسية

وهذه اللغة الفارسية التي نشأت وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها هي اللغة الفهلوية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ولكن كتبت بالخط العربي واشتملت على الفاظ عربية كثيرة . وقد أمدت العربية الفارسية غير ضنينة . والألفاظ العربية في الفارسية تختلف كثرة وقلة باختلاف الموضوع ، فهي في الشعر أقل منها في النثر ، وهي في النثر الأدبي أقل منها في لغة التأليف ، ويجد قارئ النثر الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية متوالية ليست للفارسية فيها إلا التراكيب والصلات . وقد استمر هذا الى يومنا ولا تزال العربية في هذا العصر تمد الفارسية بألفاظ جديدة الى الألفاظ التي أمدتها بها في العصور الخالية .

وكذلك استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ، ولكن تصرفوا بها بعض التصرف فزادوا في البحور وفي التفعيلات ، والزحافات والعلل ، وافتنوا في نظام التقفية .

وبقيت الأوزان العربية في معظم أشعارهم وبقيت اصطلاحات العروض والقافية كلها . ومن العجيب أن شعراء الفرس هجروا الأوزان الشائعة في الشعر العربي وأكثروا من أوزان لم يكثر النظم فيها شعراء العرب . هجروا أوزان الدائرة

الأولى كلها فلم ينظموا في الطويل والمديد والبسيط إلا محاولة بعضهم أن يستكمل الأوزان العربية ، ويبين عن قدرته على استيعابها .

وعمدوا الى أبحر الدائرة الرابعة التي فيها المقتضب والمجتث والمضارع ، الأبحر التي يندر فيها النظم العربي فأكثروا النظم فيها وتفننوا . وشاركوا العرب في الأبحر الأخرى .

وفي هذا برهان على اختلاف مزاج الأمتين ، وتباين أذواقهما في توالي الحركات والسكنات في الأوزان . وعلم البلاغة العربي يسيطر على الفارسية بقواعده وألفاظه . وكتاب حدائق السحر لرشيد الدين الوطواط لا يختلف عن الكتب العربية إلا بأمثلة فارسية معها أمثلة عربية .

وأخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك فهو يستمد من الاسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ، ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويمتاز من الأدب العربي امتيازاً واضحاً في موضوعين :

الأول : الشعر الصوفي : فقد ذهب فيه شعراء الفرس مذاهب عجيبة ، وأبانوا عن دقائق النفس الانسانية ، ونظموا المنظومات المطولة كحديقة الحدائق لمجد الدين سنائي ومنطق الطير لفريد الدين العطار ، والمثنوي لجلال الدين الرومي ، ومنظومات أخرى يضيق بها العد .

وما أحسب أدباً يجاري الأدب الفارسي في هذا الصدد .

والموضوع الثاني القصص : فقد افتن فيه شعراء الفرس بين قصص حماسي مستمد من أساطير الفرس وتاريخهم كالشاهنامة ، وقصص غرامي كقصة ليلى والمجنون ، وخسرو وشيرين ، ويوسف وزليخا ، وهم في هذا لا يملون الإطالة وقل أن تنقص القصة عن خمسة آلاف بيت وكثيراً ما تجاوز عشرة الآلاف . وقد نظم القصة الواحدة شعراء عدة في عصور مختلفة .

عبد الوهاب عزام

الغزالي وزعماء الفلاسفة

- ٢ -

٥ — دراسة بعض المسائل

لنبحث الآن في المسائل الثلاث التي أشرنا اليها في المقال السابق

١ — مسألة المعرفة

مسألة المعرفة هي الأساس الذي يرجع اليه الخلاف بين الغزالى والفلاسفة . فقد كان الفلاسفة يقولون ان المعرفة لا تتم بطريق التجربة ، بل تتم باشراق الصور من العقل الفعال على العقل الانساني . فالعقل يكون في أول امره عقلاً بالقوة ، ثم يصير عقلا بالفعل ، وذلك بما يصل اليه من الصور التي تؤديها اليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة الى الفعل لا يتم الا بتأثير العقل الفعال . وتتمايز العقول الانسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى عنه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا ان يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الاحساس معرفة .

فأنت ترى ان الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل . لأن العقل هو الذي يجرد الصور الحسية من اللواحق المشخصة ، وينتزع من الصور المتخيلة صوراً كلية . ولكن الصور المنتزعة من الاحساس والخيال لا تصبح صوراً عقلية الا بتأثير العقل الفعال او كما يقول ابن سينا بنور يفيض عليها من واهب الصور . نعم ان طريقة اكتساب المعرفة عند ابن سينا ترجع الى النظر والقياس اولاً ، ثم الى الحدس ثانياً . ولكن هذا الحدس الذي يتكلم عنه ، انما هو حدس عقلي شبيه بالحدس الذي اشار اليه ديكارت وغيره من الفلاسفة العقليين . ومعيار صحة المعاني عنده هو وضوحها بذاتها وخلوها من التناقض .

اما مذهب الغزالي في المعرفة فيختلف عن مذهب الفلاسفة في مبادئه وغاياته لانه قد بنى المعرفة على التجربة والكشف الباطني . ولليقين عنده ثلاث مراتب : اولها ايمان العامة المستند الى الخبر . فهم يصدقون ما يخبرهم به اهل الثقة ، كأن يقال لهم ان فلاناً في الدار ، وثانيها معرفة العلماء التي يصلون اليها بالاستنباط، فهم قد سمعوه يتكلم فاستنبطوا انه في الدار . غير انه يوجد فوق ذلك مرتبة ثالثة هي يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب . وهم قد دخلوا الدار ورأوا الرجل بأعينهم . والعلوم انما تثبت في القلب بطريق الاستدلال والتعلم ، أو بطريق الوحي والالهام . والغزالي يفضل العلم الذي يحصل في القلب عن طريق الالهام على العلم الذي يحصل فيه عن طريق التعلم . ومن أجمل ما في كتاب الأحياء من التشبيهات تشبيه القلب بحوض محفور في الأرض . فاما ان يساق اليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، واما أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي فيتفجر الماء من أسفل الحوض . قال الغزالي :

« والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء . وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار والمشاهدات حتى يمتلئ علماً ، ويمكن ان تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله . فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم ان هذا من عجائب اسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الأشياء مستورة في اللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين . فكما ان المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله الى آخره في اللوح المحفوظ ، ثم اخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة . والعالم الذي خرج الى الوجود بصورته تتأدى منه صورة اخرى الى الحس والخيال .

فان من ينظر الى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر اليهما • ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر اليهما، ثم يتأدى من خياله أثر الى القلب ••• والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الانسان وقلبه، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ •• فكأن للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ، وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي، اعني وجود صورته في الخيال، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي اعني وجود صورته في القلب[1] » •

وهذا القول يدل على ان المعرفة تحصل في النفس بطريقين مختلفين الأول هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة • وهو طريق التجربة الخارجية او طريق المعرفة غير المباشرة • والثاني هو طريق القلب وتطهيره ورفع الحجب عنه • وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة • وكلا الطريقين يؤدي الى نفس النتائج، لأن صورة العالم الخارجي محفوظة في النفس • فاما ان تتوجه النفس الى العالم الخارجي فتتأدى اليها المعرفة عن طريق الحواس، واما ان تتوجه الى ذاتها وتدرك صورة العالم المحفوظة في داخلها، فتتفجر منها المعرفة • والمعرفة التي تتفجر من داخل القلب اصفى وأدوم، لا بل هي كما يقول الغزالي اكثر وأغزر • وهذا الرأي شبيه كما ترى برأي (ليبنيز) الذي قال : « يظهر لنا لأول وهلة ان جميع تصوراتنا تأتي من العالم الخارجي بواسطة الحواس، وترتسم في صفحات النفس الفارغة • ولكننا اذا تعمقنا في التأمل ادركنا ان كل شيء حتى الادراكات والانفعالات انما يأتينا من داخلنا بعفوية تامة وما نظنه خارجياً او آتياً عن طريق الحواس ان هو الا تبدل في احوالنا الداخلية[2] » •

---

(١) الغزالي، احياء علوم الدين الجزء الثالث، ص ١٧ ـ ١٨ المطبعة العثمانية المصرية ـ القاهرة ١٩٣٣

(٢) كتاب الالهيات « Théodicée » ـ ٢٩٦ •

ولكن هذه الادراكات والانفعالات الداخلية هي كما يقول (ليبنيز) صور ومعارف مطابقة للحقائق الخارجية . وهي لا تنشأ عن تأثير متبادل بين العقل والطبيعة ، بل تنشأ عن توافق قديم بينهما . ومعنى ذلك ان تتابع الادراكات في الجوهر العاقل مطابق لتتابع حوادث الكون وجريانها . فهناك اذن عالمان عالم العقل وعالم الطبيعة . وكل منهما مطابق للآخر في تتابع صوره وجريان حوادثه . وهذا شبيه بقول الغزالي ان صور العالم الحقيقي مطابقة للصور المرسومة في اللوح المحفوظ وموافقة للصور الحاصلة في القلب والخيال وسواء أتوجهت النفس الى العالم الحقيقي أم غضت البصر عنه وتوجهت الى داخلها ، فان المعرفة التي تحصل لها واحدة .

وحقيقة القول ان القلب في نظر الغزالي مستعد لأن تتجلى فيه حقائق العلوم مباشرة وذلك بالتعرض للنفحات الالهية . قال الغزالي : « ان العلوم ليست ضرورية وانما تحصل في القلب في بعض الأحوال ، فتارة تهجم على القلب كأنه القي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً »[1] .

يتضح من هذا القول ان الغزالي يسمي الطريق الأول الذي نحصل به على المعرفة طريق الاعتبار والاستبصار ، ويسمي الطريق الثاني بطريق الالهام . وفوق طريق الالهام درجة من المعرفة يعرف معها المدرك كيف حصل له ذلك الالهام ومن أين حصل وتسمى هذه المعرفة وحياً . وهي مما يختص به الأنبياء ، اما الالهام فيختص به الأولياء . والعلم المكتسب الحاصل بطريق الاعتبار والاستبصار والاستدلال انما يختص به العلماء .

ويرى الغزالي ان الفلاسفة اقتصروا في أصل المعرفة على طريق الاستدلال والتعلم وأهملوا العلم الحاصل في النفس عن طريق الوحي والالهام . انهم يفنون

(١) الاحياء ، ص ١٦

انفسهم في تجريد المعاني الكلية من الكيفيات الجزئية ، مع ان المعاني الكلية المجردة أقل من أن تستنفد كل ما نشعر به في نفوسنا . واحباب الله يبلغون من الرياضة درجة يتلقون بها علماً لدنياً لا يطلع عليه العلماء الا بالاستنباط العقلي ، ولا يرتقي الى ذلك المقام الرفيع الا قليل من الناس .

ما هي قيمة هذه المعرفة التي تحصل لنا بأحد هذين الطريقين وما هي حدودها ؟

لقد ذكر لنا الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال صفة المعرفة التي يريد الحصول عليها ، فقال ان مطلوبه هو العلم بحقائق الأمور ، لذلك ظهر له « ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً »[1]

وفي سبيل الحصول على هذه المعرفة اليقينية شك الغزالي في العلم الموروث ، ثم شك في الحسيات ، ثم شك في الأوليات العقلية ، ولم تعد نفسه الى الصحة والاعتدال الا بنور قذفه الله في الصدر . وهذا النور كما يقول هو مفتاح اكثر العلوم . وهذا يدل على ان الغزالي لم يكن ريبياً ، بل كان شكه شكاً فلسفياً ، وهو واسطة للوصول الى اليقين . فقد كانت الأوليات العقلية موثوقاً بها في الأصل ، ثم لما عادت النفس الى الصحة والاعتدال رجعت الأوليات موثوقاً بها أيضاً على أمن ويقين . ولولا النور الالهي الذي قذف في الصدر لم ينقذ الغزالي نفسه من غياهب الشك الذي غرق فيه . ولكن هذا الجود الالهي لم يكن الا مفتاحاً لليقين ، ولولا استعداد العقل لقبوله لما بدد نوره ظلمات الشك . فالعقل قادر اذن على الوصول الى الحقيقة ، واذا وقع في الشك استطاع ان ينقذ نفسه منه بالتعرض للالطاف الالهية . على ان الحقائق التي يتوصل اليها العقل بنفسه

(١) المنقذ من الضلال . طبعة دمشق (مكتب النشر العربي) ، الطبعة الثانية ٦٩

لا تشمل كل شيء، وهي تختلف بحسب الطريق الذي تسلكه في الوصول الى المعرفة . فاذا كان الطريق الذي سلكناه هو طريق الاستدلال كانت معرفتنا مقصورة على امور التجربة وما يتصل بها، واذا كان طريق معرفتنا هو الوحي والالهام امكننا الوصول الى معرفة الأمور الالهية . وهذا النوع الأخير من المعرفة هو التعليم الذي جاءنا به الأنبياء . فقد علمونا أشياء كثيرة منها ما هو داخل في نطاق الاستدلال العقلي، ومنها ما هو خارج عن نطاقه . ولولاهم لما أدركنا حقيقة الأمور الالهية .

فالغزالي قد حدد اذن نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي، وجعله قاصراً على ادراك أمور التجربة . وجعل الأمور الالهية خارجة عن نطاقه . وهو في ذلك قريب من ابن خلدون .

أما الفلاسفة فقد آمنوا بسلطان العقل، وجعلوه قادراً على حل جميع المشكلات . وعدم وصول التعليم اليهم عن طريق الأنبياء لايمنعهم من الوصول الى الحقائق الأبدية . أما الغزالي فيرى ان محاولة معرفة الأمور الالهية بطريق العقل المجرد عن الوحي والالهام فضول وطمع في غير مطمع، لأن هذه الأمور كما صرح غير مرة، ليست مما تتسع له القوى البشرية . ولا تنال بنظر العقل، بل تنال بطريقة أخرى للاطلاع، هي طريقة الكشف الباطني والشعور الوجداني، وقد اقتبس الغزالي هذا النوع من المعرفة الوجدانية من الطريقة الصوفية فجعل الكشف الباطني اساس اليقين الديني ومفتاح العلوم .

ولا يشترط في الحق عنده ان يكون واضحاً بنفسه مؤيداً بالبرهان العقلي فحسب، بل يجب ايضاً ان يكون موافقاً للكتاب والسنة . وهكذا تنقسم المعرفة عند الغزالي الى قسمين : معرفة حسية ومعرفة دينية . فالعقل والتجربة هما اساس المعرفة الحسية، اما المعرفة الدينية فترتكز على الكشف الباطني . وهذا يوضح لنا السبب في حملة الغزالي على الفلاسفة، واظهاره تناقض مذهبهم في ايضاح

الأمور الالهية ، واستنباطهم اياها على طريقة العلماء . فهم لم يكتفوا بالخبر كما نقله اليهم الأنبياء ، ولا ارتقوا في المعارف اللدنية الى المشاهدة والمكاشفة ، ولكنهم ارادوا ان يزنوا حقيقة الإله والنفس بميزان العقل ، وان يستنبطوا بهذا الميزان احكاماً لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق الوحي والالهام . فوقعوا فيما وقعوا فيه من التوهم والضلال .

٢ — مسألة العالم : الزمان والمكان

والمسألة الثانية التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة العالم والزمان والمكان . وهي مسألة كلية تشتمل على عدة مسائل ، كقولنا هل العالم ازلي أم حادث ، وهل هو أبدي ام فان . واذا كان ازلياً هل يحتاج الى صانع ، وما البرهان على احتياجه الى صانع واحد . لماذا يستحيل على العقل ان يتصور إلهين قديمين .

فالفلاسفة يقولون : إن العالم كرة متناهية في الامتداد ، ولكنهم يقولون في الوقت نفسه إنها قديمة لا نهاية لها في الزمان ، وإنها بالرغم من قدمها محتاجة الى صانع . ولا مجال الآن لتفصيل القول في هذا كله ، وانما نريد ان نبين ان الغزالي لم يبطل أدلة الفلاسفة على قدم العالم وأزليته ، الا ليحدد لنا نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي ، ويبين عجزه عن ادراك مسائل ما بعد الطبيعة . فهو قد اورد أدلة الفلاسفة على قدم العالم ثم بين تناقضها ، وأورد بالاضافة الى ذلك ادلة مختلفة على حدوث العالم ، وجعل مسألة عدم تناهي الزمان ، مماثلة لمسألة عدم تناهي المكان . فاذا كنا لا نستطيع ان نتصور للزمان مبدأ أو نهاية ، فكذلك لا نقدر ان نتصور للمكان حدوداً . ولو قيل ان المكان يتعلق بالحس الظاهر ، وان الزمان يتعلق بالحس الباطن لما تغير من المسألة شيء ، لأننا مع هذا لا نخرج من المحسوس . فالبعد المكاني تابع للجسم والبعد الزماني تابع للحركة . وكما اننا نستطيع ان نقيم الدليل على تناهي أقطار الجسم ، فكذلك يمكننا ان نبرهن على تناهي الحركة من طرفيها . وهذا كله يدل على ان الزمان والمكان انما هما عبارة

عن علاقات بين تصوراتنا ، فهما اذن نسبيان . وهذا يقرب رأي الغزالي من رأي (كانت) الذي يقول ان الزمان والمكان هما صورتان سابقتان للتجربة نستعين بهما على ادراك العالم الخارجي . والفرق بين (الغزالي) و (كانت) في ذلك هو ان الغزالي يقول ان الزمان والمكان هما علاقات بين التصورات ، تخلق بخلقها أو بالأحرى يخلقها الله بين الصور الذهنية في عقولنا ، اما (كانت) فيقول ان مقولتي الزمان والمكان هما صورتان من خلق العقل يستخرجها من داخله وينشرهما ليرتب فيهما ظواهر الطبيعة ويؤلف منها سلاسل منظمة . ولكن (كانت) لم لم يوضح لنا كيف تولدت هذه المقولات من العقل ، فهل هي مثل مخلدة ، ام هي اشراق إلهي . انك لاتجد لهذه المسألة في فلسفة (كانت) جواباً شافياً أما الغزالي فقد تجنب الشبهة بارجاع الزمان والمكان الى تصورات ذهنية خلقها الله في عقولنا .

وفي تقرير الغزالي لحجة الفلاسفة ، على قدم العالم ، وابطالها دليل آخر على مشابهته (لكانت) . اننا اذا قلنا مع الغزالي ان العالم حادث ورد علينا اعتراض الفلاسفة وهو قولهم يستحيل صدور حادث من قديم . لأن الشيء لا يمكن ان ينتج الا مثله . واذا قلنا مع الفلاسفة إن العالم قديم ورد علينا اعتراض الغزالي ، وهو قوله ان في العالم حوادث ، ولها أسباب ، ولا يمكن ان تستند الحوادث الى الحوادث الى غير نهاية ، ولو كان ذلك ممكناً لا ستغنينا عن الاعتراف بالصانع واذا كانت الحوادث لها طرف ينتهي اليه تسلسلها ، فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلا بد اذن على أصل الفلاسفة انفسهم من تجويز صدور حادث من قديم . وهناك أدلة أخرى لكل من هذين الرأيين المتضادين تتفرع بعضها من بعض ، فتشتبك وتتعقد وتزيد الأمر اشتباهاً . وهي كلها تدل على عجز العقل عن ادراك هذه المسائل ، لأنها من طور فوق طوره . وتذكرنا بتناقضات العقل المحض التي جاء بها كانت لاثبات عجز العقل عن ادراك كنه مسائل ما بعد الطبيعة . فمن متناقضات العقل المحض قضية تناهي العالم في الزمان والمكان ونقيضها . فالأدلة التي جاء بها كانت للبرهان على هذه القضية ونقيضها لا تختلف كثيراً عن الأدلة

التي جاء بها الغزالي ، على لسان الفلاسفة ، لاثبات قضيتهم من جهة ، ولاظهار تناقضها من جهة أخرى . ومن تعمق في درس تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد استطاع ان يجد فيها بذوراً لمتناقضات (كانت) الاخرى كمتناقضة تركيب الجوهر من أجزاء بسيطة وعدم تركيبه ، ومتناقضة السببية والحرية . ومتناقضة وجود الموجود الواجب وعدم وجوده ، حتى ان الغزالي نفسه يقول عند الكلام عن أبدية العالم ، ان العالم يجوز أن يبقى ، وان يفنى ، ولا ترجيح عنده لأحد هذين النقيضين على الآخر إلا بالرجوع الى الشرع لا الى العقل .

٣ — مسألة السببية

والمسألة الأخيرة التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة السببية . فقد كان الفلاسفة يفرقون بين فعل الله وفعل العقول المريدة وفعل النفس والطبيعة والاتفاق . ولكن الغزالي يرى انه لا يوجد الا فعل واحد وهو فعل الموجود المريد . وهو ينكر فعل الطبيعة انكاراً تاماً ، لأننا لا نستطيع ان نرد هذا الفعل الى مجرد علاقة زمانية بين شيئين . ولا شك اننا نجد مثيلاً لهذه الآراء عند المتكلمين السابقين . ولكن جرأة الغزالي على انكار الضرورة العقلية لقانون السببية ، قد فاقت كل ما ألفناه حتى الآن ، من الاقدام على التهديم . ومن السهل علينا ان نلخص رأي الغزالي في مسألة السببية بايراد العبارة الآتية ؛ قال الغزالي

« ان الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا . بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ، ولا اثبات احدهما متضمن لاثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر . فليس من ضرورة وجود احدهما وجودُ الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما عدمُ الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والشفاء وشرب الدواء وهلم جرا ، الى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف ، وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق ، لا لكونها ضرورية في نفسها » . وقال ايضاً :

« وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به وأنه لا علة سواه » . فنحن نرى ظاهرة معينة تعقبُ ظاهرة أخرى معينة ، فنسمي الأولى معلولاً والثانية علة . اما كيف تحدث العلة معلولها فهذا سر لا يطلعنا عليه الحس ، ولا ندركه بالعقل . ومجرد اعتيادنا مشاهدة التعاقب بين ظاهرتين لا يسمح لنا بأن نقول إن الظاهرة الأولى علة الظاهرة الثانية . فالغزالي ينكر اذن الضرورة العقلية في مبدأ السببية ، ويعلن بجرأة اننا لا نعرف فعل الأشياء الطبيعية بعضها في بعض وليس في الفلاسفة القدماء والمحدثين من يشبهه في جرأته هذه الا (داودهيوم) الذي انكر أيضاً ارتباط العلة بالمعلول ارتباطاً ضرورياً . فقال ان كل ما يراه الانسان بحواسه هو ظاهرتان متعاقبتان . وليس هذا التتابع دليلاً على السببية ، ولا يمكن ان يُعلم منه ان الحادثة الأولى علة الحادثة الثانية . والعادة وحدها كما يقول (هيوم) هي التي أوحت الى الانسان بهذه النتيجة ، اذ توهم انه ما دامت هاتان الحادثتان قد ارتبطتا في الماضي ، فلا بد ان ترتبطا كذلك في التجارب المقبلة ، واذن ففكرة السببية ذاتية محضة ، وهي خدعة من الخيال ليس لها وجود الا في العقل الذي يدركها . واذا قال قائل إن رفع الأسباب مبطل للعلم ، وإن ذلك يؤدي الى قلب الكتاب حيواناً والعصا ثعباناً قال الغزالي ان الله تعالى خلق لنا علماً بأنه لم يفعل هذه الممكنات ، وهو لم يقل ان هذه الأمور واجبة ، بل هي ممكنة يجوز ان تقع ويجوز ان لا تقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى يُرسخ في أذهاننا جريانها وفق العادة الماضية . وفي هذا القول ايضاح كاف للأسباب التي حملت الغزالي على انكار السببية . فهو قد أنكر السببية ليترك باب المعجزات مفتوحاً . فعلق الأسباب والأفعال كلها بارادة الله . فالشمس عنده ليست علة الضوء ، والدواء ليس علة الشفاء ، والنار ليست علة الاحتراق ، بل الفاعل الحقيقي هو الله . فالله قد خلق هذه الظواهر ، بعضها بعد بعض على

التساوق ، لا لكونها ضرورورية في نفسها ، ولكن لغاية نجهل حكمتها . وفعل الله لا ينقطع ، بل هو يتجدد في كل وقت ، فيربط اذا شاء ظاهرة بظاهرة ، وحركة بحركة ويقطع اذا شاء هذا الارتباط . وهذا قريب من رأي (ديكارت) الذي قال ان الله يخلق العالم في كل آن . ومن رأي (مالبرانش) الذي زعم ان الله هو المنفذ المباشر لكل فعل من افعال الانسان ، لا بل هو العلة الحقيقية في ارتباط الظواهر بعضها ببعض . وبديهي ان السبب في تعليق الأسباب والمسببات بارادة الله ، انما يرجع الى العقيدة الدينية . ولولا حرص الغزالي على اعطاء الله جميع الصفات التي تعلمها من الشرع لما انكر الضرورة العقلية في قانون السببية . فهو قد أرجع هذا القانون الى الاعتياد تخلصاً من انكار المعجزات ، وجعل الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة ناظرها . فالله تعالى وحده هو السبب الحقيقي لكل شيء ، والسببية الحقيقية ترجع الى علاقة ارادية بينه وبين العالم . اما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض ، فلا قيمة له بنفسه ، ولا معنى له الا اذا ارتكز على ارادة الله .

٦ — النقد

هذه أمثلة سريعة تبين لنا موقف الغزالي من فلسفة زمانه . فقد كان الفلاسفة يعتقدون ان العقل قادر على الاحاطة بكل شيء ، فبين لهم الغزالي ان نطاق العقل مقصور على ادراك أمور التجربة . وكانوا يعتقدون ان العالم قديم فألزمهم الغزالي بأن العالم حادث ، وكانوا يقولون بارتباط الأسباب والمسببات ارتباطاً ضرورياً فأثبت لهم الغزالي ان السبب الحقيقي هو الله ، وان الله هو المريد بارادة قديمة وانه لا فاعل سواه . وما ذهب الغزالي الى ذلك كله الا ليحافظ على العقائد ويذب عن حياض الدين . فهاجم الفلاسفة مهاجمة عنيفة ، واهتدى في أثناء ذلك الى آراء جديدة لا نجدها الا عند (ديكارت) و (مالبرانش) و (كانت) و (هيوم) من فلاسفة العصور الحديثة . ففلسفة الغزالي هي بهذا المعنى فلسفة دينية

أو فلسفة مثالية شخصية اما فلسفة المشائين فهي فلسفة عقلية . والغزالي قريب من ابن خلدون في قوة الابتكار ، وهو أكثر فلاسفة العرب تحرراً من سيطرة آرسطو ، ولكنه لم يتحرر من سيطرة آرسطو الا ليستسلم لدواعي القلب ، ويلجأ الى أحضان الدين . وقد كان لرده على الفلاسفة أثر عميق في مصير الفلسفة في الشرق . فلم يقم أحد من تلاميذ ابن سينا للرد عليه فتداعى بناء الفلسفة المشائية وتفرقت عناصرها وتلقفها رجال الدين وصبغوها بألوان العقائد ، أما في الأندلس فلم يكن حظ الغزالي في أول أمره أحسن من حظ الفلاسفة ، فأعرض الناس عن كتبه ، واحرقوها كما أحرقوا كتب الفلسفة . قال ابن طملوس :

« ولما امتدت الأيام وصلت الى هذه الجزيرة كتب ابي حامد الغزالي ، فقرعت اسماع الناس بأشياء لم يألفوها ولا عرفوها ، وكلام خُرج به عن معتادهم من مسائل الصوفية وغيرهم من سائر الطوائف الذين لم يعتدْ أهل الأندلس مناظرتهم ولا محاورتهم ، فبعدت عن قبوله أذهانهم ، ونفرت عنه نفوسهم ، وقالوا ان كان في الدنيا كفر وزندقة ، فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة ، وأجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير إذ ذاك ، وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة الى الضلال ، بزعمهم ، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم الى ما سألوه منه ، فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها ، وخاطب الأمير اذ ذاك جميع أهل مملكته يأمرهم بحرقها ، ويعلمهم أنه هو الذي أدى اليه نظر العلماء ، وقرئت مخاطبته على المنابر ، وشنع الأمر بذلك تشنيعاً عظيماً . وامتحن من كان عنده منها كتاب ، وخاف كل انسان على نفسه أن يرمى بأنه قرأ منها كتاباً أو اقتناه ، وكان في ذلك من الوعيد ما لا مزيد عليه ... ثم لم تكن تمتد الأيام الا قليلاً حتى جاء الله بالامام المهدي رضي الله عنه ، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه ، وندب الناس الى قراءة كتب الغزالي رحمه الله ، وعرف من مذهبه انه يوافقه ، فأخذ الناس في قراءتها واعجبوا بها ، وبما رأوا

فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف ، ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي الا من غلب عليه افراط الجمود ، من غلاة المقلدين ، فصارت قراءتها شرعاً وديناً بعد ان كانت كفراً وزندقة[1] » .
فالناس في الأندلس قد عاملوا الغزالي بما عامل به الفلاسفة في الشرق فكفروه في أول أمرهم كما كفر الفلاسفة ، وبدّعوه كما بدّعهم . ثم لما حمى كتبه أمير راجت بضاعتها وانتشرت . ولم يوفق ابن رشد رغم حملته على الغزالي في كتاب تهافت التهافت الى منع الفلسفة من الانقراض ، فقد اتهم الغزالي بانه انما كفر الفلاسفة ارضاء للعامة ، وسبقه ابن الطفيل الى ذلك فقال ان الغزالي يربط في موضع ويحلّ في آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها . ومهما يكن من أمر فان العامة قد أحرقوا كتب ابن رشد كما أحرقوا كتب الغزالي ، واعراضهم عن كتب الغزالي في أول الأمر ثم استحسانهم اياها يدل على ما جرى اليه أمرهم ، في كل قديم وحديث . فهم ينكرون أولاً ما يألفونه ويستحسنونه آخراً . ولو لم يخب مصباح الحضارة العربية تحت تأثير العناصر الأجنبية التي سيطرت على الاسلام لأدّى تهالك الناس في استحسان آراء الغزالي الى ظهور مفكر جديد بعده ، لا يكتفي برد اعتراضاته على مذهب أرسطو كما فعل ابن رشد ، بل يرجع الى أصول مذهبه الصوفي ويفندها ، ويستبدل بهـا غيرها . إن قانون التضاد الذي اشرنا اليه سابقاً لا يعمل عمله في تطور الأفكار الا اذا كانت الأفكار حرة طليقة . فاذا انطلقت الأفكار في فضاء الحرية دعا بعضها بعضاً . ولكنهـا اذا حبست في طبقات من حجب التقليد والتعصب الأعمى نضب ماؤها وانطفأ نورها .

جميل صليبا

---

(١) ابن طملوس ، كتاب المدخل لصناعة المنطق ، مجريط ، ١٩١٦ ، ص ١١ ـ ١٢

آل بكتكين ـ مظفر الدين كوكبري

او

امارة اربل في عهدهم

(٥٢٢ هـ — ٦٣٠ هـ)

— ٣ —

٤ — نوابه

لا تظهر ادارة زين الدين علي كوچك واضحة في اربل ، وانما تتعين بذكر نوابه ، وما قاموا به من أعمال ، فلا ريب أنهم تابعون لأمره ، منقادون لتوجيهه . وهو في الحقيقة المؤسس لهذه الامارة ، كانت اقطاعه ، فتمكن أخلافه فيهـا . ولا يمتّ بنسبٍ الى الدولة الزنكية ، وانما هو من مماليك آق سنقر والد مؤسسها ، وقد أرضت ادارته الدولة والأمة . وكان قد ولي اربل كثيرون ، فلم يعرف لهم اسم ، ولكنه ذاع صيته ، وانتشر خبره . فقام بما يمكن القيام به ، فعرفت اربل بعد ان كانت خاملة مهملة . فقضى آخر أيامه فيها . وكان فيها مرقده الأخير . وهؤلاء نوابه :

١ — سرفتكين الزيني نائب اربل :

كان زين الدين علي كوچك متصلاً بالموصل اتصالاً غير منفك ، فيعين نواباً عنه في اربل . وان المترجم أحدهم . كان أرمنياً فأسلم ، وربي تربية صالحة فأعتقه سيده ، وتقدم عنده ، واعتمد عليه في كثير من أموره ، واستنابه في اربل من تاريخ فتحها سنة ٥٢٢ هـ .

وللتربية الاسلامية أثرها فيه ، فكان من الأخيار ، وادارته قويمة ، أرضت الأهلين كما كانت أعمال سيده كذلك . ومن أعماله المبرورة :

١ — بنى مساجد كثيرة في اربل وغيرها .

٢ - بنى مدرسة القلعة سنة ٥٣٣ .

٣ - بنى سور مدينة فيد التي في طريق مكة من جهة بغداد .

أثر آثاراً صالحة أمثال ما ذكر . وكل ما فعله من ماله . ولا شك انه تمشى ورغبة زين الدين وظهرت مكانة زين الدين بنائبه المذكور .

توفي في شهر رمضان سنة ٥٥٩ هـ[1] .

٢ — أبو منصور مجاهد الدين قايماز الزيني (نائب اربل) :

هو ابن عبد الله الملقب مجاهد الدين الخادم . كان عتيق زين الدين علي كوچك ، وأصله من سجستان ، أخذ صغيراً ، وكان أبيض اللون ، نسب الى زين الدين فقيل (الزيني) . وكانت مخائل النجابة لائحة عليه ، فقدمه معتقه وجعله أتابك أولاده ، وفوّض اليه أمور اربل نيابة عنه في ٥ رمضان سنة ٥٥٩ هـ — ١١٦٤ م أي صار نائب اربل اثر وفاة سرفتكين مباشرة وبعد وفاة زين الدين علي كوچك سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م خلفه ابنه مظفر الدين كوكبري فكان نائبه .

ثم خلع مظفر الدين من الامارة ، وولي أخوه الأصغر زين الدين يوسف ابنالتكين ، فكان نائبه ايضاً . ودام الى سنة ٥٧١ هـ . وفي هذا التاريخ انتقل الى الموصل ، وتولى أمورها في ذي الحجة سنة ٥٧١ هـ — ١١٧٦ م ، صار نائب الموصل في دولة الأتابكة ، فراسل الملوك وراسلوه ، وكان يبلغ منهم بكتبه ما لم يبلغ سواه . وكان منشيه (مجد الدين ابن الأثير) ، فوض اليه الأتابك سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ هـ — ٥٧٦ هـ) الحكم في بلاده ، لما رآه من اخلاصه وحسن مقاصده ، واعتمد عليه في جميع أحواله .

ومن المهم ذكره هنا ان مجاهد الدين هذا كان يحمل اكثر أموال اربل أيام نيابته ويقدمها الى الأتابك . وبهذا تقرب الى أتابكة الموصل ، وجلب النفرة

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٢٠ .

والنقمة عليه من الاربليين . ومن جهة أخرى انه أثر ا ثاراً جميلة في الموصل ، ولم يكن لاربل نصيب منها .

وفي أيام الأتابك عز الدين مسعود (٥٧٦ هـ — ٥٨٩) قبض عليه في جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م وبقي مقبوضاً عليه عشرة أشهر ، ثم أطلقه وأعاده الى ما كان عليه [1] . وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٩٠ — ١١٩٩ م .

هذا . ولما كان انتقاله الى الموصل سنة ٥٧١ هـ فهذا بمد مبدأ تولي أبي المظفر زين الدين يوسف اينالتكين الأمور بنفسه ، وقيامه بأعباء الحكم مباشرة . وقد علمنا أن نيابة مجاهد الدين قايماز بدأت من وفاة مرفتكين الزيني ، ودامت الى التاريخ المذكور وقد انتقل الى الموصل . وكان في أيام زين الدين علي كوچك قد ظهر بمظهر المخلص ، وبعد وفاته استبد بالحكم الا انه أخلص للأتابكة حتى صار نائب الموصل . وفي اربل حدثت بينه وبين زين الدين يوسف مشادة ، كما ان فعلته مع كوكبري غير مجهولة .

قال ابن الأثير في الكامل : « كان عاقلاً أديباً خيراً فاضلاً يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئاً كثيراً . » اهـ [2]

وتفصيل حياته في أتابكة الموصل ، وفي الكامل ، وفي كتاب الروضتين وابن خلكان ومؤلفات عديدة .

٥ — امارة مظفر الدين كوكبري الاولى

هذه الامارة قصيرة الأجل ، قليلة المدة . وكان أبو منصور قايماز رضي سيده زين الدين علي كوچك حتى نال نيابة اربل ، وجعله اتابك أولاده ، وبعد وفاته تمكن من نزع الامارة من ابنه كوكبري . قال ابن خلكان في وفياته : « لما توفي زين الدين علي كوچك ولي موضعه ولده مظفر الدين كوكبري ،

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٣٠٢ وهو الصواب بخلاف ما ذكر في ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٩ . وهناك ترجمته . (٢) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ٦٠ وهناك تفصيل حياته

وعمره ١٤ سنة وكان اتابكه مجاهد الدين قايماز ، فأقام مدة ، ثم تعصب مجاهد الدين عليه ، وكتب محضراً انه ليس أهلاً لذلك ، وشاور الديوان العزيز في أمره واعتقله ، وأقام أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف مكانه ، وكان أصغر منه ، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد ، فتوجه الى بغداد ، فلم يحصل له بها مقصوده ، فانتقل الى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود ... ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده الخ » اه[1] .

ومن هذا نعلم ان قايماز كان قد تحامل عليه بل تعصب وان ذهابه الى الموصل يوافق أيام سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ هـ — ٥٧٦ هـ) أي انه من حين علم بالأتابك الجديد مال اليه مستنصراً به بعد ان لم ينل قبولاً من بغداد .

وقال ابن الأثير في كامله : « ولي — قايماز — اربل سنة ٥٥٩ هـ فلما مات زين الدين علي كوچك سنة ٥٦٣ هـ بقي هو الحاكم فيها ، ومعه من يختار من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم . » اه[2]

ومن هذا نعلم أن قايماز قد تحامل عليه ، وأهانه بالحبس ، وطرده ، فذهب الى بغداد فخاب مسعاه ، ولما سمع بأن سيف الدين غازي بن مودود قد صار أتابكاً مال اليه مستنصراً به بعد ان خذل من دار الخلافة وكان يظن ان الخليفة يتخذه وسيلة للتدخل في أمور اربل ، فلم يخيب سيف الدين أمله ...

٦ — حياة مظفر الدين كوكبري خارج اربل

ان طرد مظفر الدين من اربل بعد حبسه واهانته وتعصب مجاهد الدين قايماز عليه لم يفلّ من عزمه ، فيمضي الى دار الخلافة ، ثم الى الموصل الى الأتابك سيف الدين غازي . وكان قد ولي الموصل بعد الحادث الذي جرى عليه ، فاتخذه وسيلة للذهاب اليه . وهذا الأتابك لم يرده خائباً ، واقطعه حران . ودامت امارته عليها مدة . وهو تابع للأتابكة منقاد لأوامرهم .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٢٠ طبعة بولاق . (٢) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ٦٩ .

وفي سنة ٥٧١ صار مجاهد الدين قايماز نائب الموصل ، وولي أمر الأتابكة بالنيابة، فكان ذلك داعية التذمر من ادارة الاتابكة لما كان بينه وبين مجاهد الدين من العداء والنفرة من معاملته .

ولم يتعرض المؤرخون لذكره الا قليلاً . وكان أهل الاقطاع لا يذكرون حتى يظهر ما يستوجب . كان يقوم بالخدمات المطلوبة بلا تردد . ومن أهم الحوادث ان المشادة بين الأتابكة وبين السلطان صلاح الدين قد بلغت منتهاها ، في شوال سنة ٥٧١ هـ — ١١٧٦ م جرى مصاف بينهما ، فانكسرت ميسرة السلطان صلاح الدين بمظفر الدين كوكبري ، وكان مظفر الدين في هذه المعركة في ميمنة الأتابك سيف الدين ، فانتصر من جهته . ولما رأى السلطان صلاح الدين تكون الخطر حمل بنفسه وجازف بقوته ، فانكسر سيف الدين ومن معه كسرة هائلة ، وتركوا أثقالهم ، وخيامهم وما نجحت المفاوضات قبل هذه المعركة في أمر الصلح لتمدد سيف الدين وأمله في القضاء على صلاح الدين ، اذ انه في حالته لم يتحمل انتصارات السلطان صلاح الدين ، فخذل خذلاناً عظيماً وكانت هذه الواقعة قاصمة الظهر .

والى هذه الأيام كان مظفر الدين موالياً للأتابكة ، ومثله زين الدين يوسف أخوه . ولكنه بتولي مجاهد الدين قايماز الأمر في هذه السنة (نيابة الموصل) ، وتسلطه على دولة الأتابكة لم يبد شيئاً ، كتم غيظه ، ولم يجاهر بالخلاف عليه وبعد وفاة الملك الصالح بن نور الدين الشهيد في ١٣ رجب سنة ٥٧٧ حدث ماحدث بين الأتابكة وصلاح الدين وكان الأتابك عز الدين وصاحب أمره مجاهد الدين أيضاً ، فلم يعتد بأمراء الشام ، ونعته المؤرخون بأنه كان ضيق العطن ، فرحل الأتابك من حلب وكان قد أقام بها الى ١٦ شوال من هذه السنة ، حتى أتى الرقة ، ولقي الأتابك أخاه عماد الدين فاستقر بينهما مقايضة حلب بسنجار لاعتقاد الأتابك انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الى ملازمة الشام لاجل السلطان صلاح الدين ، فتسلم عماد الدين حلب في ١٣ المحرم سنة ٥٧٨ هـ وأرسل عز الدين من تسلم سنجار .

وبلغ السلطان صلاح الدين أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال صلاح الدين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين ، فقصد الأتابكة لجمع كلمة العساكر الاسلامية على العدو ، فأخذ في التأهب لذلك وقد زادت حوادث الأتابكة في أشغاله ... ولما بلغ عماد الدين ذلك سير الى الموصل يشعر بالخبر ويستحث العساكر ، وسار السلطان صلاح الدين حتى نزل على حلب ، فكان الاتابكة شغله الشاغل ، لأنهم صدّوه عن حرب الصليبيين وصاروا عليه مع الافرنج . وكان وصوله الى حلب في ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ فأقام ثلاثة أيام ثم رحل في ٢١ منه يطلب الغزاة .

وفي هذه الأثناء استقر الحال بينه وبين مظفر الدين كوكبري ، وكان آنئذ صاحب حرّان . استوحش من أتابكة الموصل ، وخاف من مجاهد الدين قايماز ، فالتجأ الى السلطان صلاح الدين ، وعبر الى قاطع الفرات ، وقوّى عزم السلطان على قصد بلاد الأتابكة ، وسهل أمرها عنده ، ودخل الرها والرقة ونصيبين ... فكان هذا التاريخ زمن اتصال مظفر الدين بالسلطان صلاح الدين وهو جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م . وكان قد حثه على فتح الموصل الا انه لم يوفق ، ورجع عنها لأسباب اقتضتها الأوضاع الحربية ، لئلا يترك خلفه خالياً ... وكفاه منهم ان أرعبهم ، وجعلهم في ريب من أمرهم ، وليس لهم قوة المهاجمة .

وفي سنة ٥٧٩ هـ توسط رسول الخليفة وآخرون معه في الصلح فذهبوا الى صلاح الدين ودخلوا دمشق في ١١ ذي القعدة سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٤ م فلم يتفق الأمر . فان صلاح الدين اشترط في الصلح ان يكون صاحبا اربل والجزيرة على خيرتها في الانتماء اليه أو الى الموصل وهذا دليل على النفرة من مجاهد الدين قايماز قبل هذا التاريخ . وكان صاحب اربل زين الدين يوسف أخو مظفر الدين كوكبري قد حدث بينه وبين مجاهد الدين ما حدث من وحشة بعينها كانت موجودة بين مظفر الدين وبينه ، ثم كان القبض على مجاهد الدين أيام الأتابك عز الدين وكان نائبه ، فأدّى ذلك الى أن تخرج اربل وغيرها من يده لحرص الأمراء على مطالبهم الخاصة وذلك باقصاء مجاهد الدين وضياع امارات عديدة .

وفي ذي الحجة من هذه السنة ورد على صلاح الدين رسول اربل فحلف له ، فتوثقت الالفة وحصل الاتفاق ، فأمن بهذا غائلة صاحب الموصل ولم يكن الأمر مجهولاً في الموصل فقد شعروا به قبل ان يكون موضوع البحث . ففي ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ وصلت رسل زين الدين يوسف صاحب اربل مستصرخاً بالسلطان صلاح الدين يخبره ان عسكر الموصل وعسكر قزل بن يلدكز صاحب ديار العجم ومجاهد الدين قايماز قد نزلوا على اربل ، ونهبوا وأحرقوا في قراها فنصر عليهم وكسرهم . وكان أملهم أن يقضوا عليه فخابوا . ومن هذا يعلم انهم وقفوا على جلية الأمر فلم تخف خافية عليهم ، فقاموا بما قاموا به .

ولما سمع صلاح الدين ذلك رحل من دمشق يطلب بلاد الموصل فتقدم الى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حران والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في ١٢ المحرم سنة ٥٨١ هـ ، ووصل السلطان الى حران في ٢٢ صفر من السنة المذكورة وفي ٢٦ منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان قد بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وانكره ، فأخذ منه قلعة حرّان والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأديباً الى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد اليه قلعة حرّان ودياره التي كانت بيده ، وأعاده الى قانونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ، ووعده بها . وهذه الحادثة اشارة الى ان السلطان داخلته الشبهة في أنه فاوض الموصل على اربل أو فاوضته الموصل عليها .

ثم رحل صلاح الدين في ٢ ربيع الأول من السنة الى راس العين ، ووصل اليه رسول قليج ارسلان يخبره ان ملوك الشرق بأمرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين ، وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان اصر على ذلك . ولكنه بعد ان قام بأعمال عدة رحل نحو الموصل في ١١ منه حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيليات قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة تحاصر الموصل . . . وفي هذه الأثناء في ربيع

الآخر سنة ٥٨١ توفي صاحب خلاط ، فطمع السلطان في خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها .

ويهمنا أمر الموصل وصاحب اربل ، فان صلاح الدين قد صالح المواصلة وكان سبب ذلك ان الأتابك عز الدين صاحب الموصل سير ابن شداد الى الخليفة يستنجده فلم تحصل منه زبدة . ثم بلغهم ان صلاح الدين قد مرض فاتخذوا ذلك فرصة ، فبعثوا بالرسل اليه . فتمّ ما بينهما وبينه في ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ[1] .

كلّ هذه تعين توجه علاقات صاحب اربل نحو صلاح الدين . وهكذا حالة مظفر الدين ... ودام الصلح بين الأتابكة وصلاح الدين الى تاريخ وفاته بل ان المواصلة اشتركوا فعلاً في حروب الصليبيين في المصاف الأعظم في عكا ، وهكذا مظفر الدين بن زين الدين قد اشترك بجحفله ...[2] ومن اهم ما اشترك فيه مظفر الدين (وقعة حطين) وقد أبدى فيها بسالة تذكر . وقف هو وتقي الدين صاحب حماه وانكسر العسكر بأمره . ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين وفتح الله سبحانه عليهم[3] .

وكان في سنة ٥٨٣ هـ قد سار مظفر الدين كوكبري ففتح الناصرة وصفورية وقد وصفها العماد الاصفهاني ببلاغته المعروفة وأطنب في الثناء عليه لربحه المعركة[4] . وهكذا كانت له مواقف في سنة ٥٨٤ هـ ذكرها العماد[5] . كما ذكر من أبلى البلاء الحسن ، وخصّ من قام بمهمة .

نقود مضروبة :

ويهمنا أن نعين بعض النقود التي عثر عليها ، وكانت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، واسم حسام الدين بولق بن ابل غازي من آل أرتق (٥٨٠ هـ ـ ٥٩٧ هـ) ضرب عليها اسم (كوكبري بن علي) . وهذه تدل على

(١) سيرة صلاح الدين : ابن شداد ص ٥٧ . (٢) ابن شداد ص ٩٣ .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٦٢١ (٤) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢٥ — ٢٦
(٥) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٠٠

انهـا من ضرب امارته في حرّان وتلك الجهات بعد ان انفصل من الأتابكة أيام حسام الدين بولق من بني ارتق أي في سنة ٥٨٠ هـ أو بعدها حتى سنة ٥٨٦ هـ ، ولم يوجد فيها محل ضرب ولا تاريخه . ولا يصح ان يقال انها من ضرب اربل كما وهم الأستاذ (اسماعيل غالب) في كتابه (المسكوكات التركمانية) من قسم (المسكوكات الاسلامية) ، فلم تكن لهذا النقد علاقة باربل وانما ضرب أيام حكمه على حرّان والرها وفيه انه على وفاق مع الدولتين من آل ارتق وآل أيوب ... [1]

وهذا النقد من نحاس ، ولما كان خالياً من التاريخ ومحل الضرب فانه ضرب في أيام مظفر الدين كوكبري من سنة ٥٨٦ - الى سنة ٦٣٠ هـ أي بين هذين التاريخين وليس هذا بصواب . في هذا التاريخ لم تكن علاقة لآل أرتق باربل ، وانما العلاقة بالسلطان صلاح الدين وحده ، وبأخلافه ...

ونوضح هذا النقد بايراد المكتوب فيه فقد جاء في صفحة منه تصوير حاكم لابس لامة الحرب في جانب منه ذكر حسام الدين بولق بن ايلغازي وفي الآخر كوكبري بن علي .

وفي الصفحة الأخرى في الوسط الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب (وفي الأطراف) محيي دولة أمير المؤمنين .

وفي هذا ما يغني عن الايضاح . ولعل التصوير لمظفر الدين نفسه ، وهو الذي نرجحه ... وان العلاقات بين كوكبري وبين آل أرتق لا تزال مجهولة لم يعينها المؤرخون ، لتعرف جهة الاتصال . وكل ما نعلمه من الاستدلال بالحالة المشهودة ان مظفر الدين كوكبري انفصل عن الموصل ، فولد اتفاقاً بينه وبين آل أرتق كما انه مال إلى صلاح الدين ، وأخلص له في التعاون لحرب الصليبيين ، فتمكنت الألفة ، فاشترك آل ارتق ، وآل أيوب ، في ضرب النقود وكان آل أرتق يقرنون أسماءهم بأسماء آل ايوب .

---

(١) المسكوكات التركمانية من قسم المسكوكات الاسلامية ص ١٤٠

ولما كان حسام الدين بولق ولي الأمر سنة ٥٨٠ ﻫ فلا شك ان ضرب النقود جرى في هذا التاريخ أو بعده • وهو محدد بسنة ٥٨٦ ﻫ لأن كوكبري انفصل من هناك في هذا التاريخ، فعلم ان النقد المضروب كان خلال المدة بين ٥٨٠ و٥٨٦ ﻫ •

وفي سيرة صلاح الدين لابن شداد : « في أواخر ذلك اليوم ـ ٢٨ ربيع الاول سنة ٥٨٦ ﻫ — ١١٩٠ م ـ قدم ـ الى السلطان صلاح الدين ـ مظفر الدين بن زين الدين جريدة مسارعة للخدمة ، ثم عاد الى عسكره في لامة الحرب ، فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو ، وكان ما تقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو ، وينزل بهم في خيمته يمدّ لهم الطعام • وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين »[1] •

ثم جاء أخوه زين الدين يوسف ، واستقبله السلطان ، وبعد مدة قصيرة مرض فتوفي ، فصار مظفر الدين كوكبري مكانه على امارة اربل ، و تنازل عما كان بيده من اقطاع الى السلطان صلاح الدين فأنعم بها على الملك المظفر تقي الدين • فتكون مدة مظفر الدين خارج اربل قد دامت الى ٣ شوال سنة ٥٨٦ ﻫ •

ابو المظفر زين الدين يوسف ينالتكين

(أمارته على اربل) من سنة ٥٦٦ ﻫ الى سنة ٥٨٦ ﻫ

ولي زين الدين يوسف ينالتكين بعد اخيه كوكبري • ومدة امارته نحو ٢٠ سنة • ومن الغريب ان المؤرخين لم يذكروا أعماله فيها ، كأنها لمحة بصر أو برق خاطف • ولا شك ان سني الوصاية كانت إلى سنة ٥٧١ ﻫ • وهذه ليس له عمل فيهـا • فاستقل الا انه لم يذكر له حادث مهمّ خلال هذه المدة من سنة ٥٧١ ﻫ الى سنة ٥٨٦ ﻫ •

وبمراجعة حوادث المعاصرين واستنطاق جملة من المؤرخين كتب لنا العثور على بعض الحوادث الغامضة عن أيام امارة زين الدين يوسف فهل كان خامل الذكر

(١) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٠٣ •

في حين انه استكبر عمل قايماز من جراء ارساله فضلة دخل اربل الى الأتابكة ، واستبداده في الأمور ، فتمكن من اخراجه ، أو انه قربه الأتابكة اليهم لما رأوا من اخلاصه لهم . وكان المأمول أن يكتب ابن الأثير ، ولكنه أغفل ذلك ، وذكر أعماله المهمة التي تستدعي مدحه واكتفى بها وكان المتوقع ان يكتب المؤرخون الآخرون ، ولم تصل الينا جميع الوثائق التاريخية للعماد الكاتب الاصبهاني ، ولا مخابرات مجد الدين ابن الأثير . فلا تزال الوثائق مطمورة أو ادركها الفناء .

ولم نتوصل الا الى :

١ — واقعة اربل . وهذه زادت في المشادة . أدرك زين الدين يوسف توتر الوضع . ولعل العلاقة ولدها قايماز نفسه . وتفصيل الخبر ان دولة الأتابكة في الموصل كانت تتطلب ما كان يقدمه قايماز أيام نيابته على اربل ، فرأى ذلك أمراً كبيراً وان عددناه السبب في ذهاب قايماز من اربل ، وذهابه الى الموصل ، فلا ينبغي أن تعاد التجربة ...

ولد ذهاب قايماز وتولية نيابة الموصل توتراً بين اربل والموصل ، فلم يشأ زين الدين يوسف ان يحمل الأموال لدولة الأتابكة فأدى ذلك الى النفرة بل يعتبر العامل الأكبر في انفصاله من الموصل ، وشموسه على دولة الأتابكة ، وميله الى صلاح الدين وقد ظهرت قوته ، وعظمت مكانته في كسره قوة الأتابكة الذين تولى أمرهم قايماز وهذه الواقعة قربت أكثر من صلاح الدين بل ان صلاح الدين في رغبة لمن يمد يد المعونة اليه .

كان ذلك في سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م ، وصلت رسل صاحب اربل صلاح الدين في ١٤ جمادى الآخرة من هذه السنة فسار صلاح الدين يطلب بلاد الموصل انتقاماً من هذه الفعلة .

٢ — قيامه بمعاونة فعلية لصلاح الدين في حرب الصليبيين ، وظهرت له حوادث أخرى . فلم يهمل أمر المساعدة بالمال والنفوس . وكانت اربل يد الأتابكة القوية

الفتاكة في حروبها ، فخرمها الخرق ، والحرص الزائد دون العقل بل كان عملها طيشاً ، ولذا كانت اقطاعات أميرها زين الدين علي كوجك بقدر ما كان يقوم به من الأعمال ، وهذا ما كان صلاح الدين يترقبه لجلب أمير اربل زين الدين يوسف كما أنه للغرض نفسه قرب اليه مظفر الدين وكان قد نفر دولة الأتابكة في الموصل لأن مدبر أمرها مجاهد الدين قايماز وكان قد طرده من أمارته وامارة أبيه وجعله مشرداً يتطلب استعادة ملكه المنتزع منه .

٣ — وفاته . كانت في أيام جهاده في سبيل الله نصرة للإسلام في الحروب الصليبية . وكان ذلك في ٢٨ رمضان سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م بالناصرة بالقرب من عكا ، ويقال ان المسيح (عليه السلام) ولد بها .

أما حياته في أيام الوصاية فانها لا تذكر ، وانما ذكرها المؤرخون لنائبه قايماز ، والأيام الأخرى في نفرته من قايماز ، وممن التزم جانبه من الأتابكة فأدى الى انفصاله عن دولة الأتابكة واتصاله بالسلطان صلاح الدين ، ثم وفاته في سبيل الله مجاهداً ...

نعته في الفتح القدسي بقوله : «كان جاراً للكتائب ، بارزاً بالأباعد والاقارب ... فمرضت الأيام بمرضه أياماً ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضاً ضراماً ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين في موضعه ، وانه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطببه ، يوافقه على ما يحبه ، وهو جاهل بمزاجه ، ذاهل عن علاجه ، فشبّ الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ما أزهى أزهاره ، وما أنضر نضاره ... ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الغم حتى قيل انه سرّه موته ووافقه ، وقصدناه معزّين على ظن انه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه ، ووكل بالامراء أصحاب القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصوا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم

بخمسين الف دينار حتى اخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه وأعادها ، وزاده السلطان شهرزور ، وأحكم بسيره الأسباب والأمور ، فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين ، فوصل يوم الأحد ٣ شوال سنة ٥٨٦ في بعد العطل الأحوال ...» اهـ[1]

وجاء في سيرة صلاح الدين لابن شداد : «ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الأواخر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م) وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين ، قدم بعسكر حسن وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمته ، واكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب خيمة أخيه مظفر الدين .» اهـ[2]

أما أخوه فقد جاء الى صلاح الدين بتجريدة في ٢٨ ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ — ١١٩٠م .

وعن مرضه ووفاته قال : «وفي ذلك اليوم - ١٩ رمضان سنة ٥٨٦هـ - ١١٩٠م - مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً شديداً بحميين مختلفتي الأوقات واستأذن في الرواح فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال الى الناصرة فأذن له في ذلك اليوم ، وأقام بالناصرة أياماً عديدة يمرض نفسه ، فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ٢٨ رمضان وتوفي رحمه الله ، وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده وهي حرّان والرها وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وضم اليه بلد شهرزور أيضاً ، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه جابراً لخلل غيبته ، وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضحاه نهار ٣ شوال سنة ٥٨٦ قدم وعاد صحبة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك ...» اهـ[3]

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٣١٨ . (٢) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٠٦

(٣) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٢٩ وابن أبي عذيبة ج ٥ ص ٧٩ وابن خلكان في ترجمة للموفق . وهناك قصيدة مدحه بها ج ٢ ص ٣٤ .

مظفر الدين كوكبري

امارته الثانية (٥٨٦ هـ : ٦٣٠ هـ)

من أعظم (آل بكتكين)، وأكابر من اشتهر من رجالها . وجاء لقبه في النقود (ملك الأمراء) مظفر الدين أبو سعيد كوكبري . لم يسبقه أحد من أمرته في فضل، وان كانوا ذوي مكانة لا تنكر، ولا شاركه في ما قام به مشارك في مكرمة وانعام وان كان لا يصح ان تهمل قدرتهم على الادارة وقوتهم في الحروب، بل قد تتضاءل عنه عظمة الملوك، لا في السفك والنهب، بل في اعمال البر والخير، وما يعلي شأن المملكة ويقوي ثقافتها وآدابها .

ويعد بحق رجل التاريخ لا يزال ذكره منتشراً في الأوساط العلمية، وفي التاريخ السياسي والأدبي والديني : أرضى صنوف الجماعات، ووجه المملكة توجيهاً حقاً . لم يطوح بها في المآزق الحرجة، ولم يكن من الفاتحين السفاكين المجازفين، أو العتاة الجبارين . كان الفذ من نوعه بين أمراء الشرق، أحيا اربل حياة طيبة، وأنعشها وأعلى مداركها بما لا مزيد عليه في امارة لم يكن لها من الشأن قبل هذه الأسرة ما تستحق ان تذكر به ...

قام بادارة حقة، وبأعمال سياسية مقبولة معتدلة، ومكن من ثقافة لائقة وراعى الأمور الدينية، والأخلاق القويمة، فكان لتنظيمه أثره، ولادارة ماليته وجيشه المكانة الفعالة في الترتيب المرضي بين عوامل متنوعة، متنازعة الأهواء، فهو محاط بدولة الأتابكة، وبالخلافة، ودولة الأيوبيين، أوقف المجاورين عند حدودهم، وهم يتحفزون للوثوب، ويتأهبون للغنيمة، فتمكن بحكمته وحسن سياسته، أن يضرب بعضهم ببعض، يتفق مع هذه مرة، ومع تلك أخرى، ويداري الخلافة .

كان في أهبة من الطوارئ، لم يستطع أن يتحكم به أحد، ولم يغتر أو يبطش، بل استخدم القوة ولم يطوح بها، وآماله مصروفة للتفاهم لا للحرب في حين ان قوته لا يستهان بها، فيهدد بها الدول الأخرى، ولا يركن إلى المشادة . تمكن من اعلاء شأن هذه الامارة، فأبقى لها حسن السمعة، ولم يكن كملوك مضوا غير

مأسوف عليهم . ذهبت أعمالهم هباء ، أو كانت محل الاعتبار والسخط ، وذكراها ذكرى الجبابرة السفاكين . كانت حياته بنشاط كبير ، ولم تكن خاملة مهملة .

تبتدئ حياته في اربل من تاريخ ذهابه من عند السلطان صلاح الدين بعد وفاة اخيه ، وتنازله عن بلاده ، وطلب العودة الى اربل والاكتفاء بها ، فذهب اليها في ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ .

ظهرت مواهبه ، وبدت أعماله المستقلة ، وظل على ولاء صلاح الدين الى ان توفي ، ثم والى الملك العادل بالوجه المذكور . وكانت العلاقة بالاتابكة قد قطعت من أيام اخيه زين الدين يوسف بنالتكين ومالت الى الدولة الايوبية وصلته بها كانت قبل أخيه .

النقود المضروبة في أيامه

وهذه وصل الينا أقدمها ، ولعلها أول ماضرب ، وهو النقد المؤرخ في سنة ٥٨٧هـ ، فان مجيئه الى اربل كان في ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م ولا شك انه بعد وصوله اليها لم يستطع ان يقوم بالضرب في تلك السنة التي دخلها أي لم نشاهد له في هذه السنة نقداً مضروباً ، وانما شوهد هذا النقد وجاء فيه ذكر الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مقروناً باسمه (كوكبري بن علي) .

ولا شك انه كان على ولاء هذا السلطان فذكر اسمه في صفحة ، والخليفة الناصر لدين الله امير المؤمنين ، وولي عهده عدة الدنيا والدين أبا نصر محمداً في الصفحة الأخرى . مضى كوكبري على ضرب النقود مصرحاً باسم الملوك من آل أيوب الى أيام الملك الأشرف ابي الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي ، ففي سنة ٦٢٧ هـ من أيامه شعر باتفاق كان بينه وبين بدر الدين لؤلؤ للقضاء على امارة اربل ، فمال الى الخليفة المستنصر بالله ، ولكننا لم نقف على نقود له في هذه السنة ، ولا السنين التي بعدها .

كان الأمير كوكبري قد ذكر في نقوده السلطان صلاح الدين ، والملك العادل ، والملك الكامل الى تاريخ الانفصال من الأيوبيين .

يتبع : (بغداد) **عباس العزاوي**

كنز من كنوز الجاحظ

«أربع رسائل من رسائله عُثر عليها حديثاً»

أصبحت بلاغة الجاحظ وعبقريته وتفوقه على غيره في ابتكار المعاني وموضوعات الكتابة على اختلاف انواعها -- أمراً متعالماً مشهوراً . كما أن الحديث عنها يكاد يصبح مملولاً مأجوماً . فلم تبق حاجة للقراء في هذا وانما الحاجة ماسة الى وصف آثاره ، وما اشتملت عليه من مواطن للحسن والابداع ، أو مواضع للمؤاخذة والانتقاد . وهناك أمر آخر له خطره في خدمة آثار الجاحظ : ذلك أن الأغلاط التي تقع فيها ليست كالأغلاط التي تقع في آثار غيره : لأن آثاره هو تقرأ مراراً . وجمله وتعابيره تعاد تكراراً : فإذا كان ثَمّ خطأ عَلِقه الذهن وأُشربته النفس . وخاصةً نفوس الناشئين والأحداث . فأصبح من الواجب تتبع ما يُنشر من كتابات الجاحظ جملة جملة . وتفليتها فقرة فقرة . والتنبيه الى ما عساه يكون وقع فيهـا من خطأ فيصحح . أو تحريف فيقوّم . ويشار الى الصواب فيهما . أو ما يقرب من الصواب .

والمطوَّلات من مصنفات الجاحظ إن كادت تعدُّ وتحصى ، فإن رسائله وهي القصار من آثاره لا تكاد تعدّ . أو ينفد لها مدّ . وترانا من وقتٍ الى آخر نسمع أنه عُثر على جديد من أخباره . أو طريف من رسائله وآثاره .

من ذلك أربع رسائل عثر عليها المستشرق العلامة (باول كراوس) ضمن مجموعة من رسائله (أي رسائل الجاحظ) محفوظة في مكتبة (الداماد ابراهيم باشا) وقد صحح (كراوس) هذه الرسائل الأربع وعلق عليها وحقق ألفاظها جهد طاقته وطاقة رفيقه في العمل الأستاذ (محمد طه الحاجري) وبعد ان عارضاها بنسخ منها في مصادر أخرى طبعاها في مطبعة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) في القاهرة سنة ١٩٤٣ م .وهذه عنواناتها :

(١) المعاد والمعاش

(٢) كتمان السرّ وحفظ اللسان

(٣) الجدّ والهزل

(٤) فصل ما بين العداوة والحسد

وقد كان الأستاذ (كراوس) أهدى اليّ وانا في القاهرة مجموعة هذه النسخ: فإذا هو يقول في مقدمته لها معترفاً ببقاء غوامض فيها: (وما يزال أملنا كبيراً في أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها) فعلمتُ أن الناشر الفاضل على أكمل ما يكون من أخلاق العلماء . وأنه لا معنى لقبول هديته إلا العمل بأمنيته . فأساعده على رفع الغشاوة عن بعض ما في الفاظ هذه الرسائل من تحريف أو تصحيف .

(وما الكتب إلا كالضيوف فحقها بأن تُتلقى بالقبول وأن تُقرا)

وأزيد على ما قاله هذا الشاعر: إن من حقها ايضاً أن تُخدم وتُكرم . بتصحيح أغلاطها . وتقويم اعوجاجها . وإزالة الغموض إن وجد عنها . فتكون الفائدة منها أتم . والانتفاع بها أكمل .

الرسالة الأولى

وقد عُثر الى اليوم من رسائل الجاحظ وقصار آثاره على عشرين رسالةً طُبع منها احدى[1] عشرة رسالة في مصر وثلاث رسائل في ليدن ثم ثلاث في مصر وهي التي نشرها (فنكل) سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) وأخيراً ثلاث الرسائل التي ظفر بها الأستاذ (كراوس) .

قلنا إن عنوان الرسالة الأولى منها (المعاد والمعاش: في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم) وقد بعث الجاحظ بهذه الرسالة إلى (أبي الوليد محمد بن أحمد بن ابي دؤاد) . ومن مواضع العجب أن مجموعة مكتبة (الداماد) التي وُجدت فيهـا هذه الرسالة بالعنوان المذكور احتوت على الرسالة نفسها لكن بعنوان

(١) نشرها السيد الساسي سنة ١٣٢٤ هـ ثم أعاد طبعها مع زيادة ونقصان السيد السندوبي (١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م)

آخر ، ورواية أخرى ، اما العنوان الآخر فهو : (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة كتبها الى محمد بن عبد الملك) (وهو المعروف بابن الزيات وزير المعتصم) ولعل السبب في هذا الاختلاف ان النسخة الأصلية المروية عن الجاحظ قد أغفل فيها اسمها واسم المخاطب بها . فرجح أحد رواة الأدب أن المخاطب بهذه النسخة هو ابو الوليد محمد المذكور واختار لها اسم (المعاد والمعاش) أما الراوي الآخر فرجح ان يكون المخاطب بها (ابن الزيات) وسماها (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة) . واخذ الرواة من يومئذ يتداولون النسختين بالعنوانين المختلفين . وكان أحد أولئك الرواة يرويها بسندٍ وتعابير وبعض ألفاظ غير ما يرويها به الآخر . وهذا ما جعلهم يقولون إن للرسالتين روايتين .

والرجلان اللذان اختلف الرواة في نسبة الخطاب اليهما في الرسالة كانا من أشهر رجالات العلم والحكم في عصر الجاحظ : كان احدهما قاضياً ، والآخر وزيراً ، وكان للجاحظ اتصال بهما . ودالّة عليهما . يُعرف ذلك من التأمل في الأسلوب وطريقة الخطاب الذي كان يوجهه اليهما في رسائله . وتوجد طائفة من رسائل الجاحظ غير الأربع المذكورات قد وُجه الخطاب فيها الى هذين العظيمين أيضاً . و (أبو الوليد محمد) هذا ولاه الخليفة المتوكل القضاء بعد وفاة أبيه القاضي احمد بن ابي دؤاد .

ومن يتصفح أقوال الجاحظ . ويتأمل أساليبه في هذه الرسائل . وهو يتكلم في الأدب والأخلاق . وما يحمد منها وما يذم . وما يجب ان يُتوخى في معاشرات الناس ومعاملاتهم . لحين المواصلة والمقاربة ، ولحين المجافاة والمباعدة — من تأمل ذلك في كلام الجاحظ خُيل اليه أنه انما يقرأ كتابات ابن المقفع في هذه الموضوعات لولا اسهاب واستطراد أحياناً في كلام الجاحظ . وهذا ما وقع لي بالفعل فإني ذهلت عن نفسي قليلاً وانا اقرأ أقوال الجاحظ في رسائله هذه فحسبتني أعيد قراءة كلام مخبوء في نفسي . واذا المخبوء رسالة (الأدب[1] الكبير) لعبد الله

---

(١) ويسمى أيضاً الدرة اليتيمة طبعت في بيروت سنة ١٨٩٧ مع مقدمة وتعاليق للأمير شكيب أرسلان ثم طبعت في مصر مضبوطة بالشكل باسم الأدب الكبير بتحقيق أحمد زكي باشا .

ابن المقفع وقد كنتُ لخصت معظم ما فيها بخطي في زمن (الطلب) فرجعت إلى هذا الملخص وجعلت أقرؤ منه جملةً ، ومن رسالة الجاحظ جملة ، فاذا الكلامان متشابهان في كثير من الألفاظ والأساليب وطرق الإيراد . حتى كأن قلماً واحداً نطقهما . او معدناً واحداً من التبر لفظها . ولا عجب فإن الأديبين يكادان يكونان نسخة واحدة مصححة من ثقافة زمنهما وادب عصرهما . يشهد لذلك الجاحظ نفسه : فقد وصف في الرسالة الرابعة (العداوة والحسد) ما يلاقيه من عنت حساده له . واستهزائهم بما كان يكتبه ويؤلفه : فكان يعمد الى بعض مصنفاته وينسبها الى غيره من ابناء عصره . فيعجب إذ ذاك حساده بها . وينوهون بمحاسنها وبلاغة صاحبها على مسمع من (الجاحظ) مؤلفها ، وهم لا يشعرون . والى مَنْ كان الجاحظ ينسب مصنفاته المغفلة هذه ؟ قال انه كان ينسبها الى طائفة من فضلاء عصره وفي طليعتهم ابن المقفع .

اما السبب الذي حمل الجاحظ على مخاطبة القاضي ابي الوليد برسالة (المعاد والمعاش) فهو ما ذكره في فاتحتها . وملخصه انه كان يسمع بأبي الوليد ، وعظيم مواهبه ، وغُرّ مناقبه ، وتفوقه على أترابه ، فشوّقه هذا الى الاتصال به ، واختباره في شتى حالاته . فوجد لديه من الفضل والنبل والكرم أكثر مما بلغه . وقد وصله (ابو الوليد) بمودّته ، وخلطه بنفسه . فكافأه الجاحظ على نعمته عليه بتقديم هذا الكتاب اليه .

وقد قال – مخاطباً له – (فرأيت ان اجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها الخ) .

ثم ان الجاحظ انتهز ذكر (العلل) و (الأسباب) التي توخاها في كتابه فقارن بينه وبين مصنفات غيره من العلماء . ففضل كتابه من حيث انه (اي الجاحظ) يبين علل الأشياء ويكشف عن اسبابها . بينا غيره من المصنفين لا يفعلون شيئاً من ذلك . وانما اقوالهم (روايات رَوَوْها عن اسلافهم ، ووراثات ورثوها عن

اكابرهم) ثم جعل الجاحظ صنيعهم هذا من قبيل فضيلة أداء الأمانة ! ! اما فضيلة الاستنباط والاستشهاد والتعليل فليسوا منها في شيء . قال : (ولن تجد وصايا أنبياء الله ابداً الا مبينة الأسباب . مكشوفة العلل . مضروبةً معها الأمثال) هذا ما قاله الجاحظ وهو فيه يوافق من يلمز علماءنا الأقدمين (الذين كتبوا في التاريخ والأخبار والآداب) من جهة انهم إنما يتتبعون في مصنفاتهم جزئيات الحوادث، ورواياتها المختلفة ، ويوردونها من دون تمحيص ، ولا مقارنة، ولا استنتاج، ولا محاكمة ، كما يقول ابناء هذا العصر . فمؤرخونا واخباريونا عشاق رواية ولا قيمة (للدراية) في نفوسهم : فهم لا يُعملون عقولهم في تعليل الأشياء ، ولا في امكانيّة حدوثها . ولو رأى الجاحظ ما كان من ابن خلدون في (مقدمته) المشهورة لقرّت عينه واشتفت نفسه ، ولعده ابنه الوحيد الذي يسرّ به ، ويغتبط بذكائه وادبه .

على ان الجاحظ مهما قرّظ نفسه . ونوّه بحسن مآتيه في مصنفاته . فإن فيها ما يؤاخذ عليه . وكم سمعناه يعيب كلام غيره ويصمه بالمراوغة والاحتيال (ونقول نحن اليوم اللفّ والدّوَران) ثم لا نلبث ان نرى ذلك في كتاباته ، ونلمحه في الكثير من محاولاته ومناظراته . فهو كثيراً ما يهوّل على قرّائه . ويدعهم وقد وقد يُبرِج[1] بهم الطريق : بحيث يُريهم التافه من الأمور خطيراً ، والخطير حقيراً ، ويذهب بهم في مذاهب الغلوّ والتلطف في القول كلّ مذهب . حتى ليخيل اليهم أن الجبل هباء . والأرض سماء . وحتى ليكاد يقنعهم بأن اللؤم من مكارم الأخلاق . والمشخلب من نفائس الأعلاق . وان السلحفاة قد تبذّ الجرد العتاق . في ميادين السباق . ولو شئتُ لاستخرجت من كلامه عدة شواهد[2] على ما ذكرت .

قلت آنفاً إنني سأعمل على تصحيح بعض الفاظ هذه الرسائل . أما تصحيح

(١) في الأساس : يُبرج بهم الطريق (بالبناء للمجهول) إذا أخذ بهم في غير المحجة وعدل بهم عن الجادة النافذة الى غيرها ، وأصل الكلمة هندية نقلت الى الفارسية ثم عربت

(٢) واذا تعجل القارئ نموذجات من هذه الشواهد فليراجعها في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة صفحة (٧١ — ٧٢) .

ما وقع فيها من إبهام في البحث او غموض في الجمل والأساليب فإن هذا قد يتعسر • ومعرفة وجه الصواب فيه قلما تتيسر • ولذلك ستبقى صفحة او صفحات احياناً من رسائل الجاحظ مغلقة المعنى في وجه القراء ، إلى ان يفجأوا بالعثور على نسخ جديدة مصححة لهذه الرسائل •

وهذا الغموض في اساليب الجاحظ يكون ناشئاً في اغلب الأحيان من جهل النساخ فيمسخون ما خلق • ويهدمون ما بنى • وقد يكون الغموض ناشئاً من جهل القارئ بأساليب الجاحظ وطريقته في تركيب الجمل ، وتأليف الفِقَر ، التي اعتادها هو (اي الجاحظ) وبعض فحول الكتاب في الصدر الأول : ففهم كلام الجاحظ إذن يحتاج الى إطالة النظر في بعض المواطن من مصنفاته وتصفح الوجوه التي تحتمله من المعاني • ثم التثبّت مما يريد من هذا اللفظ أو ذاك التعبير • والا فقد يقرأ القارئ صفحات من آثاره ويتخلل فصولها فصلاً فصلاً • وابوابها باباً باباً ثم يخرج من دون ان يعلق بكفه منها اثر •

فالاستفادة من كتب الجاحظ متوقف على شيئين (اولا) تصحيحها وتحقيق الفاظها • (ثانياً) ألفة اساليبه ، والمران عليها • وتتوفر هذه الألفة في من تضلع من اللغة ، واتقن قواعدها •

ومن امثلة الألفاظ التي يستعملها الجاحظ ويكون لها من المعنى عنده غير ما اعتدنا ان نفهمه منها — ماجاء في ص ٨ من رسالة « المعاد والمعاش » وهو قوله : (واعلم ان الآداب انما هي آلات تصلح ان تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا الخ) فهو يريد بالآداب غير ما نفهمه اليوم منها : يعرف ذلك بالتأمل في بحثه وتتبعه الى منتهاه • فقد اراد بها المصالح البشرية • والمعاملات الدنيوية : فهو يقول إنها من الدين • وليس الدين بخارج عنها ولا منافياً لها : فالضرّتان (اي الدنيا والآخرة) متكافلتان متضامنتان : لا تستقلّ إحداهما عن الأخرى • واستشهد لذلك بما قاله (ابن عباس) في تفسير آية (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة

اعمى) • فقد قال ابن عباس (من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبرت أمور الدنيا • فكذلك هو إذا انتقل الى الدين : فانما ينتقل بذلك العقل • فبقدر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة اكثر : لأن هذه (اي الدنيا) شاهدة وتلك غيب • فاذا جهل ما شاهد • فهو بما غاب عنه أجهل) [١]

ومن قوانين الحياة العامة التي نصح الجاحظ للبشر او لمخاطبه (القاضي ابي الوليد) ان يسيروا او يسير عليها — ما يصح ان نسميه قانون [٢] (الرغبة والرهبة)

فقد قال الجاحظ ص ١٣ ما نصه (فإذ كان العباد لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره الا بما وصفتُ لك من « الرغبة والرهبة » فأعجز الناس رأياً • واخطأهم تدبيراً • واجهلهم بموارد الأمور ومصادرها • من أمل او ظن او رجا ان احداً من الخلق — فوقه او دونه — يصلح له ضميره او ينصح له بخلاف مادبرهم الله عليه في ما بينه وبينهم • فالرغبةُ والرهبة اصلا كل تدبير • وعليهما مدار كل سياسة • فاجعلها (يا ابا الوليد) مثالك الذي تحتذي عليه • وركنك الذي تستند اليه) اه

وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

(انما تنظر العيون من الناس لمن ترتجيه او تخشاه)

ومن قوانين الحياة العامة او السياسة العامة التي اشار بها الجاحظ ما يصح ان نسميه ايضاً (قانون المكافأة) وخلاصته ان رئيساً من الرؤساء اذا اراد مكافأة عامل على عمله كان عليه ان يزن المكافأة ونوعها بأدقّ الموازين : فإنّ شخصاً لم ينصح لك • ولم يكن ذا حُرمة بين الناس • ولا كفاية للمهمّ من الأعمال

---

(١) ولي في هذا المعنى كلمة جريئة كنت قلتها في صدد تحذيرنا معشر المسلمين من التفريط في توفير الأسباب الدنيوية الموصلة الى العزة والغلبة : قلت ان الدنيا مطية الآخرة فاذا أضعفنا المطية حتى أضعناها كنا للآخرة أكثر إضاعة • ثم عللت ذلك بما علل به ابن عباس غير ان قوله رضي الله عنه أشد صراحة وأكثر بياناً •

(٢) مضمون هذا القانون يشبه من بعض الوجوه ما قرره الوزير الايطالي (ميكيافيلي) في قوانينه السياسية التي دونها في كتابه (الأمير) وقد تجاهل فيها عاطفة الرحمة والرفق بالانسانية • والقول بأن هذا مطابق لسنن الله في سياسة عباده دعوى باطلة وافتراء على حكمة الخالق •

شخصاً مثل هذا إذا آثرته بالمكافأة إيثار هوى (فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة، وتوجب استصغار عظيم النعمة، ويمحق بها الأفضال، وتفسد بها الطائفتان: من آثرته ومن آثرت عليه) ثم أوغل الجاحظ في تحليل هذا المعنى. وتصوير كيف ان من آثرته بالنعمة يسخط أيضاً. وفصّل احوال المستحقين للمكافأة وغير المستحقين لها. حتى قال إن العقوبة احياناً تكون من المكافأة التي بها صلاح البشر.

(من لا يؤدّبه الجميل ففي عقوبته صلاحه)

ومن قوانين الحياة التي اشار بالتزامها قانونٌ جاء به الدين من قبل. وطالما شكا منه ومن الإخلال به رجال الاصلاح الديني: وهو (قانون التوكل): فقد حدده الجاحظ ص ١٨ وكشف عن معناه بما يحمده عليه كلٌّ من عرف مبلغ الضرر الذي لحق المسلمين من جرّاء التوكل الكاذب. قال الجاحظ احسن الله اليه (واحذر كلّ الحذر ان يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل. ويسلبك الحذر. ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار: فان الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل، والتسليم للقضاء بعد الإعذار[1]. بذلك انزل الله كتابه. وامضى سنته. فقال تعالى: خذوا حذركم. ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة. وقوله ﷺ: إعقلها وتوكل. وسئل ما الحزم؟ قال الحذر. فتحفّظ من هذا الباب. وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى).

وما ذكرناه من كلام الجاحظ وطريقته في تمييز الأخلاق. ومقارنة صالحها بفاسدها كاف في الدلالة على منزعه في الرسالة الأولى (المعاد والمعاش) ولنقبل الآن على ما في هذه الرسالة نفسها من الأبحاث اللفظية. والفوائد اللغوية. ونرجئ ذلك الى العدد الآتي.

المغربي

---

(١) أي بعد أن يكون الانسان توسل بالأسباب جهد طاقته وعجز عن الوصول الى غرضه، وإذ ذاك يعذره الناس. ويقولون إنه قد أعذر.

فهارس المخطوطات

في العراق

في بلدان العراق المختلفة ، خزائن عديدة للكتب ، بعضها خاص يملكه طائفة من الباحثين والمغرمين بجمع الكتب ، وبعضها عام عُنيت الحكومة بفتحها لجمهور المطالعين . ولا يخلو بعض هذه الخزائن من مخطوطات قديمة نادرة الوجود ، إلا ان عناية الباحثين في العراق ما زالت ضئيلة من حيث وضع « فهارس » مفصلة ، تصف ما في هاتيك الخزائن من مكنونات ومخلّفات ثمينة . وهذا تقصير مرجعه في الغالب قلة مبالاة الناس بالفائدة المرجوّة من أمثال هذه الفهارس .

ولقد سبقنا المستشرقون من أبناء الغرب في هذا المضمار وقطعوا فيه أشواطاً بعيدة . فلم يدعوا مجموعةً خطية في خزانة من خزائنهم تقريباً ، الا تولوا وصفها ودرسها . فالفهارس العديدة المتنوّعة التي صنفوها ، قد أغنت العلماء وفتحت لهم أبواباً للبحث والتنقيب كانت موصدة من قبل .

فكبريات دور الكتب الأوربية في لندن وأكسفورد وكمبردج وباريس وبرلين وليبسيك وڤيِنّة ورومة وليدن والاسكوريال وغيرها ، حافلة بفهارس مخطوطاتها التي تعدّ من أنفس المراجع وأوثقها في الوقوف على دفائن المؤلفات الخطية التي تشتت شملها وتناثر في كثير من بقاع الأرض .

وإذا استقصينا ما نُشر من « فهارس المخطوطات » في دور كتب العراق ألفينا عددها قليلاً ، لا يعدو أصابع اليدين . وسنذكر في هذه الكلمة ما نُشر منها بالطبع ، وما لا يزال مخطوطاً لدى أصحابه .

والذين عُنوا بتصنيف هذه الفهارس المطبوعة ثلاثة من أفاضل العلماء المؤلفين :

أولهم : السيد أدّي شير : المؤلف العراقي الشهير ، مطران الكلدان في سعرت سابقاً ، المتوفى سنة ١٩١٥ م . فقد وضع باللغة الفرنسية فهرسين ثمينين في هذا الباب :

الأول : فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب دير السيدة حافظة الزروع ، بجانب القوش التي في شمالي الموصل . وقد نشره مؤلفه في المجلة الآسيوية الفرنسية بباريس (Journal Asiatique) سنة ١٩٠٦ ، ثم طبعه في السنة نفسها ، في رسالة لطيفة تقع في ٦٥ صفحة ، وصف فيها ١٠٣ مخطوطة[1] .

الثاني : فهرست المخطوطات السريانية والعربية ، المحفوظة في خزانة كتب دار البطريركية الكلدانية بالموصل . وقد طبعه مؤلفه في باريس سنة ١٩٠٧[2] ونسخه اليوم نادرة .

وثانيهم : الدكتور داود الجلبي الموصلي . فقد نشر كتاباً عظيم الشأن ، وسمه بـ « مخطوطات الموصل »[3] ، ذكر فيه الكتب العربية ، والمكتوبة بحروف عربية ، التي وقف عليها في مدارس الموصل الدينية وجوامعها ، ذلك الى مجاميع يملكها بعض الباحثين والسراة وغيرهم في مدينة الموصل .

وقد بلغت المخطوطات التي تطرّق المؤلف لذكرها أو وصفها ، قرابة أربعة آلاف مخطوطة ، مفرّقة بين نيف وخمسين خزانة ، نذكر منها ماشتملت على خمسين مخطوطة أو أكثر من ذلك :

---

(١) Addai Scher (Mgr.) : Notice sur les Nanuscrits Syriaques conservés dans la Bibliothèque du Couvent des Chaldéens de Notre - Dame des Semances .

(٢) Catalogue des Mss . Syr . et Arabes de la Pibl . Patriarcat Chaldéen de Mossoul .

(٣) مخطوطات الموصل ، وفيه بحث عن مدارسها الدينية ومدارس ملحقاتها . (مطبعة الفرات ، بغداد ١٩٢٧ ؛ ٣٨٩ ص) .

عدد المخطوطات	الخزانة	عدد المخطوطات	الخزانة
٢٦٠	المدرسة الأحمدية	٥٧	المدرسة العبدالية
٦٨	〃 الاسلامية	٥٠	〃 العثمانيسة في جامع الرابعية
٣٦٨	مدرسة جامع الباشا	٣٠٧	〃 المحمدية في جامع الزيواني
١١٥	〃 〃 بكر افندي	٢٩٥	مدرسة الملا زكر (الحاج زكريا)
٥٥	〃 〃 الخاتون	٢٢١	〃 النبي شيث
٦٨	〃 الجامع الكبير	٥٣	المدرسة النعمانية
١١٥	〃 الحاج حسين بك في جامع السلطان أويس	٣٧٢	مدرسة يحيى باشا
٣٠٦	〃 الحجيات	٧٦	خزانة كتب المؤلف الدكتور داود الجلبي
٣١٧	المدرسة الحسنية		
١٣٥	مدرسة الخياط		
٢٦١	〃 عبدالرحمن جلبي الصائغ		

وثالثهم : المستشرق الفرنسي الأب ڤوستي الدومنكي : فانه صنف ثلاثة فهارس مفيدة ، وصف فيها مخطوطات ثلاث خزائن عراقية ، وهي :

١ — فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب دير السيدة[١] . وهو على غرار الفهرست الذي صنفه المطران أدي شير لهذه الخزانة ، وقد أشرنا اليه ، بيد ان هذا أكمل وأتم . لأن ڤوستي وصف فيه ثلاثمائة وثلاثين مخطوطة وصفاً حسناً .

٢ — فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب الأبرشية الكلدانية في كركوك[٢] . وقد نشره بالفرنسية في مجلة الشرق المسيحي (Orientalia

---

(١) Vosté (J.-M., O.P.) : Catal. de la Bibl. Syro - Chaldéenne du Couvent de Notre - Dame des Semances près d'Alqosh. (Rome, 1929 ; 130 p.).

(٢) Catal. des Mss. Syro - Chaldéens conservés Dans la Bibl. de l'Archevêché Chaldéen de Kerkouk.

Periodica Christiana) الصادرة في رومية سنة ١٩٣٩ · وقد وصف المؤلف في هذا الفهرست ٤٩ مخطوطة ·

٣ — فهرست المخطوطات السريانية المحفوظة في خزانة كتب الأسقفية الكلدانية في العقر[١] · وقد نشره بالفرنسية في المجلة المذكورة سنة ١٩٣٩ ، وفيه وصف ٦٧ مخطوطة ·

هذا ما أتيح لنا الوقوف عليه من الفهارس «المطبوعة» ، التي تصف المخطوطات في العراق · ونضيف الى ما تقدم ذكره ، ثبتاً صغيراً صنعه الأستاذ كاظم الدجيلي لخزانة كتب الأمير (عم) في النجف ، ونشره في مجلة لغة العرب (٤ [بغداد ١٩١٤][٢] ص ٤٠ — ٤٥) وقد وصف فيه ١٧ مخطوطة ·

وللأستاذ الشيخ علي الخاقاني ، صاحب مجلة «البيان» التي تصدر في النجف ، وصفٌ حسن لأربع وعشرين مخطوطة ، منثورة في بعض خزائن كتب النجف ، نشره في جملة مقالات ظهرت في مجلة «الاعتدال» النجفية[٣] · وقد استل هذه المقالات من كتابٍ نفيسٍ له يُعنى بتأليفه في وصف أهم ما تحويه خزائن كتب العراق من مخطوطات ·

* * *

وهنالك غير ما ذكرنا ، فهارس لخزائن عراقية أخرى ، وقفنا على بعضها مخطوطة لدى اصحابها ، نذكرها فيما يأتي استتماماً للفائدة ورجاء ان يتحقق طبعها :

١ — فهرست مخطوطات المتحف العراقي : يشتمل على وصفٍ مفصل لجميع المخطوطات

(١) Catal. des Mss. Syro - Chald. conservés Dans la Bibl Episcopale de ‘Aqra.

(٢) بدأت لغة العرب بسنتها الرابعة سنة ١٩١٤ فصدر منها جزآن وبعض الثالث ، ثم دهمتها الحرب الكبرى الأولى فاحتجبت ثم ظهرت سنتها الرابعة ثانية سنة ١٩٢٦ مبتدئة بالجزء الأول باغفال تسلسل الأجزاء المذكورة الصادرة قبل الحرب · فليتنبه الى ذلك ·

(٣) الاعتدال (٥ [١٩٣٨ — ١٩٤١] ص ٥٧ ، ١١٣ ، ١٧٤ ، ٢٧٣ ، ٥٣٣ ، ٥٧٤ ؛ ٩ [١٩٤٦] ص ٧٥ ، ١٥٥ ، ٢٣٨) ·

العربية والفارسية والتركية والسريانية والعبرية المحفوظة في خزانة كتب المتحف العراقي . عني بتأليفه بالعربية الدكتور مصطفى جواد وكوركيس عوّاد . ويتألف هذا الفهرست من ثلاثة اجزاء ، فيها وصف نحوٍ من اربعمائة مخطوطة ، وستشرع مديرية الآثار القديمة العامة العراقية في طبعه عما قريب .

٢ — فهرست مخطوطات دير الكرمليين ببغداد : صنفه بالعربية العلامة الأب انستاس ماري الكرملي . وهو في ثلاثة مجلدات كبار ، تصف بايجاز نحواً من ١٥٠٠ مخطوطة . وكان مؤلفه قد نشر اقساماً منه في وصف المخطوطات النصرانية في هذه الخزانة ، في نيّف وعشرين مقالة ظهرت كلها في « نشرة الأحد » المجلة الأسبوعية المعروفة التي كانت تصدر في بغداد [١] .

٣ — فهرست مخطوطات قلاّية الموصل وكنائسها السريانية: للبطريرك اغناطيوس افرام الأول برصوم . وهو بالعربية .

٤ — فهرست مخطوطات دير مارمتّى وكنائس القرى التابعة له : للبطريرك أفرام برصوم . وهو بالعربية ايضاً .

وهذان الفهرسان الأخيران ، لم اقف عليهما ، وإنما رأيت مؤلفهما العلامة يشير اليهما في بعض تآليفه [٢] .

٥ — فهرست خزانة الدار البطريركية الكلدانية بالموصل : وضعه بالفرنسية الخوري اسطيفان كجو ، على غرار الفهرست الذي صنفه المطران أدّي شير لهذه الخزانة . فان نفاد نسخ فهرست ادي شير منذ زمن بعيد ، وحصول زيادة على مخطوطات هذه الخزانة ، اوجبا وضع هذا الفهرست الجديد الذي ننتظر ان ينشر بالطبع يوماً ما .

٦ — فهرست مخطوطات خزانة عوّاد ببغداد ، ألفه بالعربيه صاحبا هذه الخزانة ،

(١) نشرة الأحد (المجلدات ٨ ، ٩ ، ١٠ الصادرة سنة ١٩٢٩ — ١٩٣١) .

(٢) اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية (حمص ١٩٤٣ ؛ ص ١٢ ، الرقم ٣٤ و ٣٥) .

كوركيس عوّاد واخوه ميخائيل عوّاد . وقد وصفا فيه المخطوطات العربية والفارسية التركية والسريانية ، وعددها جميعاً ٢٣٤ مخطوطة .

٧ — فهرست خزانة كتب آل باش اعيان العباسي بالبصرة : للأستاذ علي اقاني . وقد شرع بنشره في مجلة « الغري » النجفية ، فظهرت منه جملة اقسام والأمل ان يتم نشره بكامله.

* * *

على ان هنالك فهارس او قوائم غير ما ذكرنا ، لم نتمكن من حصرها هنا ، إما لأننا لم نستطع الوقوف عليها ، او لأنها موضوعة بوجهٍ لايصلح ان تُنشر به .

ومهما يكن من أمرٍ ، ففي بلدان العراق كنوز خطية مجهولة لدى كثير من العلماء والباحثين ، يحسن ان يُذاع امرها ويُعلن عنها للملأ ، فتدرس دراسةً وافية تليق بها .

ففي بغداد والنجف وكربلاء والبصرة والموصل وغيرها من المدن ، مخطوطاتٌ لا تُحصى ، تنتظر مَن يُعنى بأمرها ويخرجها من مكامنها ، ويفتح للناس سبيل معرفتها والوصول اليها . وليس من وسيلة لتيسير ذلك غير نشر فهارس محكمة لها .

(بغداد) كوركيس عواد

مجموعة أشعار

مصعبة المباني مغمضة المعاني

في خزانة كتب مسجد احمد باشا الجزار في مدينة عكا مجموعة خطيه تحتوي على عدة رسائل صغيرة الحجم نسخها احمد بن سليمان المفتي الشافعي في ٢١ ربيع الأول من سنة ١١٨٨ الهجرية وفي أولها رسالة بدون اسم او عنوان جاء في مقدمتها :

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الفقير الى رحمة ربه الغني مسعود بن احمد الشافعي رحمه الله تعالى الحمد لله موسع العطاء مسبغ الغطاء مسبغ النعم والآلاء المحمود على السراء والضراء المشكور في الشدة والرخاء أحمده ولا محمود على الحقيقة سواه وأشكره شكر الذاكر الأواه وصلى الله على سيدنا محمد نبيه المرسل من خير العناصر اصطفاه ومن أكرم الآباء والأجداد اجتباه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه خير آل وأشرف اصحاب واتقاه وعلى الخلفاء الراشدين الأئمة المجتهدين ومن استن بسننه وهداه .

وبعد فاني لما نظرت في علم العربية ووقفت على دقائقه وحقائقه وراجعت كتب العلماء وتصانيفهم وجدتها مشتملة على أبيات من الشعر مصعبة المباني مغمضة المعاني قد ألغز قائلوها اعرابها ودفن في غامض الصنعة صوابها وهي في الظاهر فاسدة قبيحة وفي الباطن جيدة صحيحة .

وقد كان العلماء المتقدمون كالأصمعي وغيره يتساءلون عنها ويتفاخرون بها أردت ان أجمع منها ما تيسر لأوضح مشكله وأبين مجمله مشيراً الى موضع

النكتة منه غير مشتغل بإيراد النظائر والأمثال فيفضي الى الضجر والملال فيكون ذلك داعياً للنظر فيه وأنساً لحافظيه ومتأمليه وأقدم على ذلك الكلام بإعراب حديث عنه صلى الله عليه وسلم فتكثر فائدته وتعظم بركته وجعلته برسم الخزانة المولوية السلطانية الملكية الكاملية أدام الله ملك مالكها اذ كان الله سبحانه وتعالى قد خصه من العلم بأوفر نصيب وحاز قدحه منه بالسهم المصيب لا سيما علم العربية الذي هو مفتاح الفهوم وسر العلوم والسبب الموصل الى علم البيان المطلع على دقائق معاني القرآن قد خصه الله بالفضل العميم والقلب الرحيم حتى شهدت له بذلك الضمائر والقلوب واستوجبت شكر نعمه في الحضرات والغيوب وأقرّت بالتقصير عن ادراك مداه فاعترفت بانه لا يصلح للملك الدنيا مالك إلا إياه فأسبغ عليه نعمته وفضله كما بسط في العباد طوله وعدله وجعل بقاءه ما بقي الأبد وملك مملكته في النفس والولد .

القول على ما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال :

« إنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عليَّ في صُحبتِهِ ومالِهِ أبو بكرٍ »

وبعد ان توسع في اعراب هذا الحديث الشريف المشرّف للصدّيق رضي الله عنه تناول الأبيات التالية ونقلها بنصها وشكلها .

لشاعر : إنَّ مَنْ يدخلِ الكنيسة يوماً فهوَ يلقى جآذراً وظِباء

مما أنشد سيبويه :

كأنك من جِمال بني أقيشٍ يقعقع خلفَ رجليه بشنِّ

مما أنشد سيبويه :

وما الدهرَ إلاّ تارتانِ فمنهما أموت وأخرى ابتغي عيشة الرخا

مما أنشد علي الفارسي :

لا تيأسنَّ وكنْ في الله محتسباً فبينما أنت ذا يأسٍ أتى الفرجا

مما أنشد علي الفارسي :

سأترك مهرتي رجل فقير وأركب في الحوادث مهرتان[1]

مما أنشد بعض العلماء :

دجاجتان وبطتان كما ركب المهلب بغل تان[1]

مما أنشد علي الفارمي :

فرعون مالي وهامان وقد زعموا اني بخلت بما يعطيه قارونا

مما أنشد ابن السكيت :

قال زيد سمعت صاحب بكر قائل قد وقعت في اللأواء

لشاعر: لا يكون العير مهراً لا يكون المهر مهر

مما انشد بعض الفقهاء :

صل حبالي فقد سئمت الجفاء يا قتولي واحفظ علي الإخاء

مما انشد بعض العلماء :

هيهات قد سفهت أمية رأيها واستجهلت سفهاؤها حلماؤها

حرب تردد بينهم قد كفرت آباؤها أبناؤها

مما انشد بعض العلماء :

كساني أبي عثمان ثوبان للوغى وهل ينفع الثوب الرقيق لدى الحرب

مما انشد بعض العلماء :

فلو ولدت فقيرة جرو كلب اسب بذلك الجرو الكلابا

لشاعر: أبا الكوز فاشرب قهوة بابلية لها في عظام الشاربين دبيب

مما انشد بعض العلماء :

لقد قال عبد الله شر مقالة كفى بك يا عبد العزيز حبيبها

لشاعر: ستعلم أنه يأتيك بكر وأن أخوك فيه من اللغوب

(١) قال والتان التاجر

لبعض العلماء :

لقدْ قالَ عبدَ اللهِ قولاً عرفتهُ أتاني أبي داوُدَ في مرتعٍ خصبِ

لشاعر: أتانا عليٍّ في ديارِ محمدٍ وفارقنا عمروٍ ومرَّ بنا بكرِ

قال أتانا تثنية اتان مضاف الى عليّ وفار فعل ماضٍ وقنا فاعل وعمرو مضاف اليه ومرّ فعل ماض ايضاً وبنا فاعل وبكر مضاف اليه .

ما انشد ابن أسد :

رأيتُ عبدَ الله يضرب خالدٌ وأبا عُميرةُ بالمدينة يُضرَبُ

ما انشد ابن أسد :

وإنا رُعاةِ للسيوف أكارماً سمتْ فرآها الأقربون على قربِ

لشاعر: أقولُ لخالداً ياعمروٍ لما علتنا بالسيوفُ المرهفاتُ

قال علتْ نابي السيوفُ والنابُ هو الجمل المسنّ .

لشاعر: وأنتم معشرٍ لئامٍ نلقى لديكم كلّ أذى وبؤسٍ

قال ان قوله معشر يعني اي مع شرّ ولكنه خفف لاقامة الوزن وبؤس مخفوضة بالعطف على شرّ .

وجاء على اعراب اثني وعشرين بيتاً أخر من هذا النوع ومن جملتها هذا البيت :

قيلَ لي انظرْ إلى السهام تجدْها طائراتٍ كما يطيرُ الفراشا

وبعدُ : فاننا لم نطلع على ترجمة لمؤلف هذا الكتيب الصغير الذي يرجح انه لم يمثل بالطبع بعد وعلى كلّ حال فهو مما ألف برسم خزانة الملك الكامل ابن الملك العادل من بني أيوب وقد ولي الملك بمصر سنة ٦١٥ ه وتوفي في شهر رجب من سنة ٦٣٥ ه « ١٢٣٨ م » فيكون من مؤلفات القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي .

عبد الله مخلص

مخطوطات ومطبوعات

ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام

عني بنشره وتحقيقه الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

وهو من مطبوعات المجمع ، طبع بمطبعة الترقي بدمشق عام ١٩٤٦ ، عدد صفحاته (٢٠٦)

اسم هذا الكتاب بالتحقيق : (تتمة صوان الحكمة) ، كما جاء في ترجمة مؤلفه في معجم الأدباء . وانما سمي مؤخراً : (تاريخ حكماء الاسلام) لاقتصاره على ترجمة فلاسفة الاسلام من رجال القرن الثالث والرابع والخامس والسادس . وقد نسج مؤلفه فيه على منوال أبي سليمان المنطقي السجستاني في كتابه : (صوان الحكمة) ، إلا ان كل من ذكره ابو سليمان لم يترجم له البيهقي لاعتقاده ان ابا سليمان قد أنصف في ذكره ، فجاء كتابه مقصوراً على ترجمة مائة واحد عشر حكيماً ومهندساً وطبيباً وفلكياً ومنجماً من ابناء الشرق القريب . فليس فيه اذن ذكر لفيلسوف من فلاسفة اليونان ، ولا ترجمة لحكيم من حكماء الأندلس .

وربما كان تاريخ الحكماء للقفطي أتم واكمل من كتاب ظهير الدين البيهقي ، الا ان البيهقي صنف كتابه قبل القفطي بمائة سنة . وترجم لحكماء لم يتعرض لهم غيره . فله في ذلك فضل التقدم ، وله ايضاً مزية خاصة لا يشاركه فيها كتاب آخر ، وهي اشتماله على تراجم بعض المعاصرين ممن عرفهم البيهقي واتصل بهم وعاشرهم كالفيلسوف حجة الحق عمر بن الخيام ، والامام محمد الشهرستاني ، والامام احمد بن حامد النيسابوري ، والامام محمد الحارثان السرخسي ، وغيرهم .

وأحسن ما في الكتاب ترجمة ابن سينا . فقد توسع فيها المؤلف خاصة ، واكثر من اخبار الشيخ الرئيس ، وذكر تلاميذه ومعاصريه وما جرى بينهم من المناظرات والمشاجرات كالفيلسوف ابي الفرج بن الطيب الجاثليق ، والحكيم ابي القاسم

الكرماني ، وابي الريحان البيروني وغيرهم . وهذه الأخبار تصور لنا عصر ابن سينا احسن تصوير ، وتبين لنا كيف كانت مدن الشرق تعج بالفلاسفة ، وكيف كان الملوك والأمراء يرتبطون الحكماء والأطباء ويشاركونهم في العلم .

أشار الأستاذ الرئيس محمد كردعلي الى ذلك كله في مقدمة الكتاب ، ثم قال : وقد عرفنا من كتاب المؤلف « ان التعصب كان بعيداً جداً عن الحكماء ، وعهدنا بأكثر المؤلفين في تلك القرون يترجمون لأهل الاسلام كما يترجمون لمن لم يعتل ملته بدون غرض ولا هوى » وقال أيضاً : « وأتانا هذا الكتاب ببرهان آخر على ان المدنية الاسلامية وحدة لا تتجزأ ، وان كل قطر متمم للأقطار الأخرى ، فاذا كانت خراسان خصت برجال الحكمة ، فان الأقطار السائرة أخرجت رجالاً في فروع العلم غير قليلة » (ص : ٧ — ٨) . وقال أيضاً : « ترجم البيهقي من ترجم لهم بإيجاز ... وانا لنجد من الأخبار في هذه التراجم المختصرة ما لا نجد من تراجمهم في بعض كتب السير المطولة . ومن أهم ما حرص على ذكره ما أثر لهم من حكم لطيفة اهتم بالتقاطها اكثر من اهتمامه بتدوين سني ولاداتهم ووفياتهم . وقد يفصل ترجمة الرجل ويكتفي بنقل ما عزي اليه من كلام جميل » .

فمن الحكم الدالة على فلسفة ذلك العصر ما نقله المؤلف من حكم القاضي الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرزاق التركي (ص ١٣) . قال : « إذا أردت ان تعرف مثالاً لترتيب الوجود فانظر الى الخليفة ينصب السلطان ، والسلطان ينصب الوزير ، والوزير ينصب الأمير ، والأمير ينصب الوالي ، والوالي ينصب القاضي ، والقاضي ينصب المزكي والعدول » . فهذا القول يشير الى ترتيب الوجود في نظر ابن سينا وغيره من فلاسفة الاسلام ، يدل على تأثير الحياة السياسية والاجتماعية في النظريات الفلسفية . فكأن المبدأ الأول في نظرية الفيض هو الخليفة وكأن العقل الأول هو السلطان ، وكأن العقل الثاني هو الوزير . والكون أشبه شيء بدولة فصلت فيها القوة المدبرة عن القوة المحركة كما فصلت

القوة الروحية في المجتمع السياسي عن القوة التنفيذية ، والمبدأ الأول يخلق العقل الأول كما ينصب الخليفة السلطان ، والكواكب والافلاك كلها تتحرك في السماء تسبيحاً لله تعالى كما يتحرك الأمراء والسلاطين في خدمة الخليفة المقيم في بغداد .

وقصارى القول ان كتاب البيهقي عظيم الفائدة لأنه صور لنا ناحية جميلة من نواحي التفكير الاسلامي وكشف لنا النقاب عن حياة بعض الحكماء الذين لم يترجم لهم القفطي ولا ذكرهم ابن ابي اصيبعة وابن خلكان .

وقد حقق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي هذا الكتاب أحسن تحقيق ، وقدم له بمقدمة جامعة ، وشرح معانيه وعلق عليها ، وقارن بين ما أتانا به البيهقي وبين ما ذكره صاحب طبقات الأطباء وصاحب تاريخ الحكماء من الأخبار والسير . وختم الكتاب بفهارس في التراجم ، والأعلام ، والأمكنة ، والبقاع ، والشعوب ، والقبائل ، والمذاهب ، والكتب ، فجاء عمله هذا متمماً لكتب التراجم الأخرى ومعيداً الينا كثيراً من الحلقات المفقودة من تاريخ الفكر الاسلامي .

جميل صليبا

كريم عزقول : العقل في الاسلام

طبع بمطابع صادر في بيروت عام ١٩٤٦ ، عدد صفحاته ١٨٠ من القطع الوسط.

عنوان هذا الكتاب لا يدل بالضبط على موضوعه ، لأن عنوانه العقل في الاسلام ، وموضوعه البحث في قيمة العقل وحدوده عند الغزالي . ومن قرأ هذا العنوان الضخم ظنّ ان المؤلف سيتكلم في كتابه عن قيمة العقل عند مفكري الاسلام ، جميعاً من الفقهاء والمفسرين ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والعلماء ، والكتاب ، والمؤرخين ، والشعراء . ولكن ليس في الكتاب شيء من هذا . وما ذكره المؤلف عن طريق المعرفة في الاسلام قبل الغزالي لا يروي غلة ، ولا يشفي علة ، بل هو استعراض سريع لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأثريين واهل التعليم والمتصوفين لا يزيد على عشرين صفحة .

القوة الروحية في المجتمع السياسي عن القوة التنفيذية ، والمبدأ الأول يخلق العقل الأول كما ينصب الخليفة السلطان ، والكواكب وافلاكها تحرك في السماء تسبيحاً لله تعالى كما يتحرك الأمراء والسلاطين في خدمة الخليفة المقيم في بغداد .

وقصارى القول ان كتاب البيهقي عظيم الفائدة لأنه صور لنا ناحية جميلة من نواحي التفكير الاسلامي وكشف لنا النقاب عن حياة بعض الحكماء الذين لم يترجم لهم القفطي ولا ذكرهم ابن ابي اصيبعة وابن خلكان .

وقد حقق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي هذا الكتاب أحسن تحقيق ، وقدم له بمقدمة جامعة ، وشرح معانيه وعلق عليها ، وقارن بين ما أتانا به البيهقي وبين ما ذكره صاحب طبقات الأطباء وصاحب تاريخ الحكماء من الأخبار والسير . وختم الكتاب بفهارس في التراجم ، والأعلام ، والأمكنة ، والبقاع ، والشعوب ، والقبائل ، والمذاهب ، والكتب ، فجاء عمله هذا متمماً لكتب التراجم الأخرى ومعيداً الينا كثيراً من الحلقات المفقودة من تاريخ الفكر الاسلامي .

جميل صليبا

كريم عزقول : العقل في الاسلام

طبع بمطابع صادر في بيروت عام ١٩٤٦ ، عدد صفحاته ١٨٠ من القطع الوسط.

عنوان هذا الكتاب لا يدل بالضبط على موضوعه ، لأن عنوانه العقل في الاسلام ، وموضوعه البحث في قيمة العقل وحدوده عند الغزالي . ومن قرأ هذا العنوان الضخم ظنّ ان المؤلف سيتكلم في كتابه عن قيمة العقل عند مفكري الاسلام ، جميعاً من الفقهاء والمفسرين ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والعلماء ، والكتاب ، والمؤرخين ، والشعراء . ولكن ليس في الكتاب شيء من هذا . وما ذكره المؤلف عن طريق المعرفة في الاسلام قبل الغزالي لا يروي غلة ، ولا يشفي علة ، بل هو استعراض سريع لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأثريين واهل التعليم والمتصوفين لا يزيد على عشرين صفحة .

أما ما بقي من الكتاب فهو مشتمل على قيمة العقل وحدوده عند الغزالي ، اتانا المؤلف فيه بشيء عن حياة الغزالي ثم ذكر موقفه العام من المعرفة على الاطلاق وتكلم عن شكه في العلم وعن كيفية خروجه من الشك ورجوعه الى اليقين ، ثم أشار الى رأيه في قيمة العقل ومبادئ المعرفة وميزان النظر وحدود العقل في الأدبيات والغيبيات وموقفه من علم الكلام والفلسفة وطريقة الصوفية . كل ذلك بعبارة واضحة وأسلوب حسن وتبويب جيد .

ولعل الصفة الأساسية البارزة في هذا الكتاب هي دفاعه عن ايمان الغزالي بالعقل ومبادئ المعرفة . فالغزالي في نظر المؤلف يعتقد أن مبادئ المعرفة ضرورية يقينية يقرها العقل من دون برهان لمجرد حضورها في الذهن وهي تفرض نفسها على العقل بنفسها وتستمد قيمتها من ذاتها لا من معونة خارجية .

نعم ان الغزالي يصرح بأن نفسه قد عادت الى الصحة والاعتدال بنور قذفه الله في الصدر ، وان الخلق كلهم يتعلمون العلم من الرسل ، وان الإمام الذي علمنا الموازين هو امام الائمة محمد بن عبد الله (القسطاس المستقيم ص ٢٢) مما يوهم ان هناك معونة خارجية . ولكن هذه الأقوال لا تكفي لحملنا على الاعتقاد ان محك المعرفة الأخير عند الغزالي هو عامل خارجي . اذ ان أثر المعلم مقصور على الارشاد الى مبادئ المعرفة والتنبيه اليها . وسواء أفطن العقل الى هذه المبادئ عن طريق التعليم أم اقتنع بها عن طريق النظر والتجربة والاختبار فانه لا يعتقد صحتها الا لوضوحها بذاتها . فالتعليم لا ينفي العقل ، بل يقتضيه ويوجبه (ص ١٠٦) . والمحك الأخير لمبادئ المعرفة انما هو الوضوح والبداهة ، اما المعونة الخارجية فلا تنفع الا على سبيل الدعم والتثبيت (١٠) . وما صب النور الالهي على مبادئ العقل ليكسبها وضوحها ولكن ليزيل عنها مداخل السفسطة ويعيد النفس الى الصحة والاعتدال . ولولا مداخل الشك لما احتاج العقل الى هذا النور . فالغزالي في نظر المؤلف ليس اذن ريبياً ، بل هو من انصار الاثبات العقلي ، والعقل في نظره

آلة سليمة ضرورية لاقتناص المعرفة ، أساسه الضروريات وسبيله النظر وميزانه قواعد المنطق ومحكه الوضوح واليقين .

وهذا كله صحيح . اننا نعتقد مع المؤلف ان الغزالي يؤمن بصلاح النظر ومنفعته ، وصدق العقل في حكمه على أمور التجربة ولكننا نخالفه في زعمه ان العقل المجرد عن الشرع يصلح في نظر الغزالي للخوض في مسائل ما بعد الطبيعة . لقد قال ابن خلدون ان الميزان الذي يوزن به الذهب لا توزن به الجبال ، وقال الغزالي ان من يزن الذهب بميزان يمكنه ان يزن به الفضة وسائر الجواهر ، فهل يفهم من هذا القول ان الغزالي لم يحدد نطاق العقل ؟ ان الفضة وسائر الجواهر هي والذهب من جنس واحد ، فلا غرو اذا قال الغزالي انها توزن بنفس الميزان . اما مسألة الصفات الالهية وقدم العالم وبقاء النفس بعد الموت ، ومسائل الحشر والنشر فهي من الأمور التي لا يحكم العقل فيها الا بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين (التهافت ص ٨) .

لقد أعدت قراءة التهافت والمنقذ من الضلال والقسطاس المستقيم ، وغيرها من كتب الغزالي فلم أجد فيها ما يسمح بالقول ان العقل قادر على ادراك مسائل ما بعد الطبيعة ، بل خلصت من ذلك الى نتيجة ذكرتها في غير هذا المكان وهي ان الغزالي يؤمن باحكام العقل ويرى انها صادقة في أمور التجربة وما يتصل بها ، أما الأمور الالهية فهي من طور فوق طوره . وكتبه مملوءة من الأقاويل التي تدل على عجز العقل عن ادراك اسرار الحقائق الالهية . فقد قال :

« وبفساد ذلك يفسد هذا كله على من يأخذ هذه الأمور من نظر العقل . فجميع ما ذكروه من صفات الأول او نفوه لا حجة لهم عليه الا تخمينات وظنون تستنكف الفقهاء منها في الظنيات . ولا غرو لو حار العقل في الصفات الالهية ولا عجب . انما العجب من عجبهم بأنفسهم وبأدلتهم ومن اعتقادهم انهم عرفوا هذه الأمور معرفة يقينية مع ما بها من الخبط والخبال » (تهافت ص ٥٣) .

وقال أيضاً :

« وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله، والناكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى ما اشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق انفسهم ، الظانين بالله ظن السوء المعتقدين ان أمور الربوبية تستولي على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم زاعمين ان فيها مندوحة عن تقليد الرسل واتباعهم » (تهافت ص ٣٠) .

وقال أيضاً :

« فاستحالة هذا لا تعرف بضرورة ولا نظر . وقد وردت به الأنبياء والمؤيدون بالمعجزات . فيجب قبوله منهم . واما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالارادة ففضول وطمع في غير مطمع » (تهافت ص ٣٢) .

وقال أيضاً :

« فلتقبل مبادئ هذه الأمور من الأنبياء وليصدقوا فيها فان العقل ليس يحيلها ، ولتترك البحث عن الكيفية والكمية والماهية فليس ذلك مما تتسع له القوى البشرية . ولذلك قال صاحب الشرع تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله » (تهافت ص ٣٣) .

وقال أيضاً :

« في الناس من يذهب الى ان حقائق الأمور الالهية لا تنال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها » (تهافت ص ٤٤) .

وقال أيضاً : -

« وان هذا ان كان صحيحاً فلا يطلع عليه الا الأنبياء بالهام من الله أو وحي وقياس العقل ليس يدل عليه » (تهافت ص ٥٧) .

وقال أيضاً :

« وما ذكرتموه وان اعترف بامكانه ، فلا يعرف وجوده ولا يتحقق كونه وانما السبيل فيه ان يتعرف من الشرع لا من العقل » (تهافت ص ٦٢) .

وقال أيضاً :

« ومن الأشياء ما تعرف استحالته ومنها ما يعرف امكانه ، ومنها ما يقف العقل عنده فلا يقضي فيه باستحالة ولا امكان » (تهافت ٦٩) .

وقال أيضاً :

« وانما انكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل » (تهافت ٨٤)

فهذه الأقوال وغيرها تدل على ان العقل عاجز في نظر الغزالي عن الوصول الى حقائق ما بعد الطبيعة وانه لا يطلع عليها الا عن طريق الوحي ، وانه بعد الاطلاع عليها من الشرع يحكم النظر فيها لتفهمها . فهو اذن آلة صحيحة الا انه مقيد في مسائل ما بعد الطبيعة بقيود الوحي والالهام .

ونعتقد ان المؤلف اراد ان ينقذ الغزالي مما وصم به من احتقار العقل فبين لنا أولاً ان العقل عنده ميزان صادق ثم بين لنا ثانياً ان نطاق العقل عنده غير محدود فأصاب في الأولى واخطأ في الثانية .

وفي كتابه بعض الهنات اللغوية والنحوية . كقوله في ترجمة « Tabula Rasa » (الطاولة المعراة) وصوابه الصفحة الصقيلة أو الصفحة البيضاء لأن (طاولة) لاوجود لها في لغة العرب . وقوله : فلنْ ننكر على الأقل ان معرفة الله وشكر نعمته مثلاً (امرين حسنين) بحكم العقل ، وصوابه (امران حسنان) . وقوله : ولكن هاتين الدعوتين (واهيتين) ، وصوابه (واهيتان) الى غير ذلك من الهنات التي لا ينبغي لمثله الوقوع فيها .

ج . ص

ديوان ابن عنين

شرف الدين ابي المحاسن محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي

عني بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم بك

هذا الديوان من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو يقع مع مقدمته في ما يزيد على ثلاث مئة صفحة ، مطبوع طبعاً حسناً على ورق صقيل .

وقال أيضاً :

« ومن الأشياء ما تعرف استحالته ومنها ما يعرف امكانه ، ومنها ما يقف العقل عنده فلا يقضي فيه باستحالة ولا امكان » (تهافت ٦٩) .

وقال أيضاً :

« وانما انكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل » (تهافت ٨٤)

فهذه الأقوال وغيرها تدل على ان العقل عاجز في نظر الغزالي عن الوصول الى حقائق ما بعد الطبيعة وانه لا يطلع عليها الا عن طريق الوحي ، وانه بعد الاطلاع عليها من الشرع يحكم النظر فيها لتفهمها . فهو اذن آلة صحيحة الا انه مقيد في مسائل ما بعد الطبيعة بقيود الوحي والالهام .

ونعتقد ان المؤلف اراد ان ينقذ الغزالي مما وصم به من احتقار العقل فبين لنا أولاً ان العقل عنده ميزان صادق ثم بين لنا ثانياً ان نطاق العقل عنده غير محدود فأصاب في الأولى واخطأ في الثانية .

وفي كتابه بعض الهنات اللغوية والنحوية . كقوله في ترجمة « Tabula Rasa » (الطاولة المعراة) وصوابه الصفحة الصقيلة أو الصفحة البيضاء لأن (طاولة) لاوجود لها في لغة العرب . وقوله :فلن نشكر على الأقل ان معرفة الله وشكر نعمته مثلاً (امرين حسنين) بحكم العقل ، وصوابه (امران حسنان) . وقوله : ولكن هاتين الدعوتين (واهيتين) ، وصوابه (واهيتان) الى غير ذلك من الهنات التي لا ينبغي لمثله الوقوع فيها .

ج . ص

ديوان ابن عنين

شرف الدين ابي المحاسن محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي

عني بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم بك

هذا الديوان من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو يقع مع مقدمته في ما يزيد على ثلاث مئة صفحة ، مطبوع طبعاً حسناً على ورق صقيل .

وابن عنين شاعر دمشق ، ووزير من وزرائها ، وسفير من سفرائها ، فهو بذلك من رجالات السياسة في عصره ، وحامل راية شعره . واذا شئت ان تعرف هذا الشاعر معرفة صحيحة ، فعليك بالمقدمة الممتعة التي وضعها الأستاذ المحقق الناشر . فانها تبرزه لك في صورة صادقة ، تعرف بهـا محاسنه ومعايبه ، وعلمه وأدبه ، وسياسته واخلاقه ، ومنزلته بالشعر .

استمع له يقول فيه :

« قبل ان يولد ابن عنين بسنة واحدة ، مات شاعران انتهت اليهما الرياسة في الشعر ببلاد الشام . هما ابن القيسراني ، وابن منير الطرابلسي . ولم يقم بعدهما من هو فى طبقتهما حتى نبغ ابن عنين ، فأشبه الأول ، بجزالته ومتانته ، وضارع الثاني بالهجاء ونهش الأعراض . وفاقهما بخفة الروح ، والدعابة والتهكم والسخرية .

حاكى في كثير من شعره جزالة المتقدمين ، ولكن الطابع الشخصي ، واللون المحلي ظاهران في شعره أشد ظهور ، وقل في الشعراء من تراءت على شعره صورة بيئته وزمانه كما تراءت على شعر ابن عنين . فأكثر قصائده تنادي على نفسها ان قائلها شاعر دمشقي عاش في العصر الأيوبي .

وشعره كثير الفنون ، متعدد النواحي ، جم الأغراض ، وعناصره منتزعة من مصادر شتى ، يتجارى فيه طبع الشاعر ، وفن الصانع ، وتتبين فيه مقدرة اللغوي ، وتهذيب العالم المثقف ؛ فهناك محسنات البيان والبديع ، وهناك استعمال مصطلحات العلوم من نحو وصرف ، ونقد وحديث ، ومنطق وطب ، وفلك وهندسة وحساب ...

اما لغته فجزلة منقحة اذا جد ، وحفظه للمفردات وحسن انتقائه لها عجيب ...

وهو على طول باعه في اللغة ، ومقدرته على حسن السبك ، ومتانة الوصف ، وحسن ذوقه في انتقاء الفصيح ، لا يتحرج في مواضيعه الهزلية من اللحن أو ما يشبهه ، واستعمال الألفاظ والتراكيب العامية الشائعة في دمشق لعصره ، مما له اصل فصيح أو لا ...

الى ان يقول :

وأجل ما في شعره واطرفه – في رأيي – الحنين الى دمشق ، والدعابة والتهكم والسخرية .

قلنا : اما ان يكون اطرف ما في شعر الرجل ، الدعابة والتهكم والسخرية ، فنعم . ولو قال الناشر : وارق ما في شعر ابن عنين وأشعره ، الحنين الى دمشق لقلنا له أيضاً : نعم . اما أجله ، فليس الحنين الى دمشق ، ولا هو الدعابة والتهكم والسخرية ، ولكنه الشعر الذي قاله في واقعة دمياط . والذي يقول فيه الناشر نفسه :

« ... على ان لابن عنين موقفاً من انبل المواقف الشعرية المحمودة في هذا الباب ، وذلك في واقعة دمياط التي انجلت عن كسر الصليبيين سنة (٦١٨) فاستجاشت الشعر في صدره وكان قد بلغ السبعين ... »

هذه القصيدة – في رأينا – هي عروس الديوان ، وآية الشاعر ، واجل ما قاله واجزله وافخره . وهذه بعض ابياتها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ـ اذا جهلت آياتنا ـ والقنا اللُدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلاً من الروم لا يحصى يقيناً ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمةً وديناً وان كانوا قد اختلفوا لُسنا

* * *

واطمعهم فينا غرور فارقلوا الينا سراعاً بالجياد وارقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأساً نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا طويلاً فما أجدى دفاع ولا اغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمراً فألقوا بأيديهم الينا فاحسنا
منحنا بقاياهم حياة جديدةً فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ولوغاً ولكنا ملكنا فاسجحنا

* * *

وقد عرفت اسيافنا رقابهم مواقعها فيها فان عاودوا عدنا

هذا الشعر العجيب المطرب ، السهل الممتع ، والفخر الصدق ، ليس من غاية وراءه في الاحسان والابداع .

أما ماعاناه الناشر في تصحيحه وتحقيقه ، من صعوبة في المعارضة والموازنة والمراجعة بين مختلف نسخ الديوان التي عثر عليها — وكلها ممسوخة مغلوطة — فشيء ليس يعرفه ، ويعرف قدره ومقداره ، إلا من تصفح الديوان ، ورأى هذه الروايات القلقة المضطربة التي أحالت الكلمات عن مواضعها وعن أصولها ، مما يستحيل ان يهتدي اليه إلا من أوتي من البصر بالأدب واللغة والشعر ، ما أوتيه الأستاذ الخليل .

وحبذا لو أن الأستاذ زاد في تفسير بعض الكلمات ، وفي شرح بعض المعاني ، وهو أمر كان يسيراً عليه في جانب الجهد الذي بذله في التنقيح والتصحيح . ولو انه فعل لكان جمع بين الحسنيين ، ووجب له علينا الشكر مرتين . بل مرات .

عارف النكدي

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

تأليف عبد الرحمن بن نصر الشيزري

يقع الكتاب في نحو من مئة وخمسين صفحة ، جيد الطبع والورق ، حسن الترتيب والتبويب . قام على نشره السيد الباز العريني : المدرس بمدرسة الخديوي اسماعيل الثانوية ، بإشراف الدكتور محمد مصطفى زياده : أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول . فجاء هذا الكتاب في احسن ما يكون من التحقيق والتدقيق ، كما انه جاء دليلاً ناطقاً على مآثر السلف وما كانوا عليه في حياتهم الاجتماعية من حضارة ونظام ، قد يكون اكثره مجهولاً عند اكثرنا . وفي اخراج هذا السفر ومدارسته ، احياء لعدد غير قليل من المفردات العربية ، والمصطلحات الفنية ، مما نحن في أشد الحاجة الى مثله .

وهذه جملة مما قاله الدكتور زيادة ، في تصدير الكتاب ، تظهر مزاياه ، وتفصّل ما أجملناه . قال :

هذا الشعر العجيب المطرب ، السهل الممتنع ، والفخر الصدق ، ليس من غاية وراءه في الاحسان والابداع .

أما ماعاناه الناشر في تصحيحه وتحقيقه ، من صعوبة في المعارضة والموازنة والمراجعة بين مختلف نسخ الديوان التي عثر عليها — وكلها ممسوخة مغلوطة — فشيء ليس يعرفه ، ويعرف قدره ومقداره ، إلا من تصفح الديوان ، ورأى هذه الروايات القلقة المضطربة التي أحالت الكلمات عن مواضعها وعن أصولها ، مما يستحيل ان يهتدي اليه إلا من أوتي من البصر بالأدب واللغة والشعر ، ما أوتيه الأستاذ الخليل .

وحبذا لو أن الأستاذ زاد في تفسير بعض الكلمات ، وفي شرح بعض المعاني ، وهو أمر كان يسيراً عليه في جانب الجهد الذي بذله في التنقيح والتصحيح . ولو انه فعل لكان جمع بين الحسنيين ، ووجب له علينا الشكر مرتين . بل مرات .

عارف النكدي

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

تأليف عبد الرحمن بن نصر الشيزري

يقع الكتاب في نحو من مئة وخمسين صفحة ، جيد الطبع والورق ، حسن الترتيب والتبويب . قام على نشره السيد الباز العريني : المدرس بمدرسة الخديوي اسماعيل الثانوية ، بإشراف الدكتور محمد مصطفى زياده : أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول . فجاء هذا الكتاب في احسن ما يكون من التحقيق والتدقيق ، كما انه جاء دليلاً ناطقاً على مآثر السلف وما كانوا عليه في حياتهم الاجتماعية من حضارة ونظام ، قد يكون اكثره مجهولاً عند اكثرنا . وفي اخراج هذا السفر ومدارسته ، احياء لعدد غير قليل من المفردات العربية ، والمصطلحات الفنية ، مما نحن في أشد الحاجة الى مثله .

وهذه جملة مما قاله الدكتور زيادة ، في تصدير الكتاب ، تظهر مزاياه ، وتفصّل ما أجملناه . قال :

« وكتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة .. نبع من منابع التعريف بأحوال المجتمع الاسلامي عامة — والشرق الأدنى خاصة — في العصور الوسطى . وهو لذلك مورد من أقرب الموارد الصافية التي سيغترف منها المشتغلون بكتابة التاريخ الاسلامي حسب الأسس الجديدة ..

غير ان اهمية الكتاب لا تنحصر في مجرد اسبقيته وافضليته على سائر الكتب المشابهة ، كما انها لا تستند الى افاضة مؤلفه في بيان ما ينبغي للمحتسب ان يتحلى به من الصفات ، أو يقوم عليه من مراقبة السوقة والأسواق ؛ بل تظهر اهميته كذلك في ما جاء به من ذكر ما كان يقوم به اصحاب الحرف والصناعات من انواع الغش في مبيعاتهم ومعاملاتهم ، مما ينبئ ببعض احوال التجارة والتجار ، في عصر المؤلف على الأقل . يضاف الى ذلك ما بالكتاب من الحقائق الكاشفة عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في القرن الثاني عشر الميلادي ، كاستخدام النساء في تنظيف القطن والكتان على ابواب الحوانيت بالطريق العام ، وشغف نساء بغداد بالاخفاف التي تصر عند المشي لاجتذاب الأنظار . وفي الكتاب كذلك كثير من الألفاظ العربية الفصيحة والمولدة الصحيحة ، مثل الدوارين ونصاب المبضع والملزم ونحوها ، مما يغوص اهل العربية في بطون المطولات والأمهات لالتقاطه ... والذين يقيسون الكتب بما فيها من تسلية ، يجدون .. كثيراً من الأخبار الطريفة ... »

وهذا باب من الكتاب ، يعلن عن نفسه ، وبنوه بهذا النظام ، وبهذه الحضارة ، اللذين كانا عليهما السلف ، في حياته الاجتماعية : والباب هو الباب السادس وعنوانه :

الحسبة على الخبازين :

« ... ينبغي ان تُرفع سقائف حوانيتهم ، وتفتح ابوابها ، ويجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان ، لئلا يتضرر بذلك الناس . واذا فرغ الخباز من احمائه ، مسح داخل التنور بخرقة نظيفة ، ثم شرع في الخبز .

ويكتب المحتسب في دفتره اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فان الحاجة

تدعوه الى معرفتهم ، ويأمرهم بنظافة اوعية الماء وتغطيتها ، وغسل المعاجن ، ونظافتها وما يغطى به الخبز ، وما يحمل عليه .

ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه ، لأن في ذلك مهانة للطعام ، وربما قطر في العجين شيء من عرق ابطيه وبدنه ، فلا يعجن الا وعليه ملعبة [1] او بشت مقطوع الاكمام ، ويكون ملثماً أيضاً ، لأنه ربما عطس او تكلم فقطر شيء من بصاقه او مخاطه في العجين . ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين . واذا عجن في النهار فليكن عنده انسان في يده مذبة يطرد عنه الذباب . هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل السفيقة مراراً .

وبعد هذا فصل في منع الخبازين من غش الخبز ، وان لا يخبز حتى يختمر ، فان الفطير ثقيل في الوزن والمعدة . .

ثم الباب السابع في الحسبة على الفرانين : يفرقهم المحتسب على الدروب والمال واطراف البعد . . ويأمرهم بإصلاح المداخن ، وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة ، من اللباب المحترق ، والشرر المتطاير ، والرماد المتناثر ، لئلا يلصق في اسفل الخبز منه شيء . . .

وينبغي ان يكون له مخبزان : احدهما للخبز والآخر للسمك ، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز ، لئلا يسيل من دهنه على الخبز . ولا يأخذ من العجين زيادة عما جُعل له . . .

الى غير ذلك من الأبواب والفصول التي تتناول جميع اهل الحرف والمهن والصناعات المعروفة في عصرهم .

وأضاف الناشر الى الكتاب ثلاثة ملاحق ، اورد في الملحق الثالث من النصوص الفرنسية القديمة ما يدل على ان منصب الحسبة واعمالها ، انتقلت من الدولة الاسلامية الى المملكة الصليبية ببيت المقدس . وقد نشرت هذه النصوص في ذيل الكتاب ، وعقب عليها بترجمتها الحرفية الى العربية .

ع . ت

(١) الملعبة الثوب من غير كم . والبشت رداء من صوف يلبسه الفلاحون والنساء والمجانون .

الجهاد السياسي

وضعه الطبيب عبد الرحمن الكيالي

يقع الكتاب في مئة صفحة او تزيد . اراد المؤلف من كتابه على ما قال في كلمة الاهداء : « بحث الجهود السياسية التي بذلها رجالات سورية المجاهدون لخلاص أمتهم ، وتحرير بلادهم ، ودفع الغاصب عن وطنهم .. »

وعرف الأستاذ في مقدمة الكتاب : الجهاد السياسي ، وما يتطلبه ، والمقصود منه ، وكيف ينشأ ، وعلاقة السياسة بالوطنية ، وشروط الجهاد .

ثم نوه بجهود سورية في الماضي والحاضر في سبيل استقلالها ، وبما كان لأهلها العرب من حضارة وفتوحات في جاهليتهم وفي اسلامهم .

وفي جملة ما قاله المؤلف : انه بزوال حكم العرب عن الشام ، وغلبة غيرهم عليه ، ضعفت فيه الحضارة ، وضعف العلم ؛ وان استبداد الأعاجم وعنجهيتهم كان سبباً في يقظة العرب ، وفي ما كان منهم من هذا الجهاد السياسي الذي يصفه .

وتبسط المؤلف في ذكر العهد العثماني ثم عاد فأجمله بقوله : « حكم الرعية لمصلحة الراعي » وانه كان يقوم على « الاخضاع بالقوة ، واخذ المال بالقوة ، وتسيير الأمور بالقوة » ولم ينكر على بعض السلاطين العثمانيين ما كانوا عليه من عدل وصلاح ، حالت دونهما بطانة السوء ، وقال : « ان الترك لم يستعدوا لقبول التجدد والتحول »

وأسهب في النهضة العربية ، وأشاد بعهد فيصل ، وبما كان فيه — على قصره — من جهاد سياسي . وان فيصلاً — رحمه الله — اذا لم يأت بالمعجزات ، فانه لم يقصر بالممكنات . وتعرض بالذكر الأسباب التي قضت بانهيار الحكم العربي في الشام ، فكان مما ذكره منها : ضعف الأخلاق ، وما نتج عنه من شراء فرنسة لضمائر بعض السوريين ، وافسادها الأمر على فيصل ، بالقلاقل والدسائس والفتن تهيجها ، وبالنعرات المذهبية والطائفية والجنسية تثيرها .

هذا وصف مجمل للكتاب ، وهو اذا لم يكن من الكتب التاريخية ، لأن صاحبه كتبه في معتقله ، حيث لم تكن تصل يده الى الكتب والوثائق يعتمد عليها ، ويستمد منها . ولأنه مكتوب بلغة الخطابة لا لغة التاريخ ؛ فالكتاب فائدته انه

ضم صفحات من صفحات الجهاد ، وصفحات من صفحات الاستعباد ، خليق بالعرب ان يراجعوها ، وبالناشئة ان يعرفوها . فيعرفوا اي بلاء يحيق بالأمة اذا حكمها اجنبي عنها .

ع . ن

محاضرات نقابة المحامين

في السنة القضائية بحلب ١٩٤٥ — ١٩٤٦

كتاب يقع في قرابة ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير . جيد الورق والطبع ، والترتيب والتبويب . يضم ثماني عشرة محاضرة من امتع المحاضرات موضوعاً ، وأنصعها أسلوباً ، ألقاها ثمانية عشر فاضلاً : اربعة منهم من رجال القضاء ، واربعة عشر من رجال المحاماة ، ويطول بنا الكلام ان نحن رحنا نعددها محاضرةً محاضرة ، ونصف ما فيها من الفوائد . ونظلم القارئ ونسيء الى انفسنا ان نحن نوهنا ببعضها وأغفلنا البعض الآخر ، لذلك ندعو القراء ، ولا سيما القضاة والمحامين ، الى مطالعة هذا السفر الجليل ، والاغتراف من مباحثه القيمة .

ويمتلئ قلب الانسان غبطة وسروراً ، وهو يرى ما بلغته المحاماة في البلاد السورية من علم صحيح ، وثقافة واسعة ، بعد ذلك الركود والجمود ، وبعد ان كنت لا تجد — قبل بضع سنين — الا في النادرى من يحسن ان يعالج موضوعاً من مثل هذه الموضوعات ، بشيء من العلم والفهم ، وبأسلوب عربي ، تفهم معه ، ما يراد منه .

ولا يسعنا الا ان نشكر للأستاذ الكوراني : نقيب المحامين ولزملائه اعضاء النقابة الفاضلين ، هذا الجهد الموفق الذي كان سبباً في اخراج هذه المحاضرات . كما نشكر للمحاضرين : قضاة ومحامين ، حسن تخير المحاضرات واجادتهم فيها : موضوعاً وبياناً .

ع . ن

عصر السريان الذهبي

للفيكنت فيليب دي طرازي

طبع بمطبعة جدعون في بيروت سنة ١٩٤٦ في ١١٩ صفحة

هذا كتاب وضعه صديقنا وزميلنا المؤلف بعد ان بحث موضوعه في المظان

ضم صفحات من صفحات الجهاد ، وصفحات من صفحات الاستعباد ، خليق بالعرب ان يراجعوها ، وبالناشئة ان يعرفوها . فيعرفوا اي بلاء يحيق بالأمة اذا حكمها اجنبي عنها .

ع ٠ ن

محاضرات نقابة المحامين

في السنة القضائية بحلب ١٩٤٥ — ١٩٤٦

كتاب يقع في قرابة ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير . جيد الورق والطبع ، والترتيب والتبويب . يضم ثماني عشرة محاضرة من امتع المحاضرات موضوعاً ، وأنصعها أسلوباً ، ألقاها ثمانية عشر فاضلاً : اربعة منهم من رجال القضاء ، واربعة عشر من رجال المحاماة ، ويطول بنا الكلام ان نحن رحنا نعددها محاضرةً محاضرة ، ونصف ما فيها من الفوائد . ونظلم القارئ ونسيء الى انفسنا ان نحن نوهنا ببعضها وأغفلنا البعض الآخر ، لذلك ندعو القراء ، ولا سيما القضاة والمحامين ، الى مطالعة هذا السفر الجليل ، والاغتراف من مباحثه القيمة .

ويمتلئ قلب الانسان غبطة وسروراً ، وهو يرى ما بلغته المحاماة في البلاد السورية من علم صحيح ، وثقافة واسعة ، بعد ذلك الركود والجمود ، وبعد ان كنت لا تجد — قبل بضع سنين — الا في الندرى من يحسن ان يعالج موضوعاً من مثل هذه الموضوعات ، بشيء من العلم والفهم ، وبأسلوب عربي ، تفهم معه ، ما يراد منه .

ولا يسعنا الا ان نشكر للأستاذ الكوراني : نقيب المحامين ولزملائه اعضاء النقابة الفاضلين ، هذا الجهد الموفق الذي كان سبباً في اخراج هذه المحاضرات . كما نشكر المحاضرين : قضاة ومحامين ، حسن تخير المحاضرات واجادتهم فيها : موضوعاً وبياناً .

ع ٠ ن

عصر السريان الذهبي

للفيكنت فيليب دي طرازي

طبع بمطبعة جدعون في بيروت سنة ١٩٤٦ في ١١٩ صفحة

هذا كتاب وضعه صديقنا وزميلنا المؤلف بعد ان بحث موضوعه في المظان

المعتبرة · والسريان الذين كتب هذا المختصر في نشأتهم وعلاقتهم بالأمم القديمة وما أقاموه من معالم الحضارة وتعاليم الدين وما ابدعوه في الفنون الجميلة وشادوه من اديار وخزائن كتب وألفوه من كتب وترجموا من علوم ـ قبل الاسلام وبعده ـ هذه الأمة حرية ان يكتب تاريخها وما تاريخها الا جزء من التاريخ العربي يصح ان يدعى بهذا الاسم منذ قام رجال العلم فيهم وخرجوا ابناءهم في العلوم وتوفروا على نقلها للسانهم من الألسن الأخرى ونقلوا الى العربية ما كان عندهم منها ·

« فنحوا منذ المائة الرابعة للتاريخ المسيحي عصراً سعيداً ذهبياً بما انشأوه من المدارس الشهيرة والمعاهد الفخمة والمكتبات الزاهرة وبمن انجبوه من الأعلام ... وظل يسطع نور عصرهم الذهبي حتى القرن السابع بل امتد الى القرن الثامن وتوسع بعضهم فقال الى القرن التاسع · ثم عادت فبزغت انوار ذلك العصر الذهبي الميمون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد » ·

« ولقد ذهب رهط من اهل البحث الى ان السريان هم الذين استنبطوا الكتابة لأن بلاد الفونيقيين الذين علموا الكتابة لليونان ليست الا بقعة صغيرة من بلاد السريان اشهر مدنها صور وصيدا وبيروت وجبيل · والفونيقيون كما هو ثابت كانوا أمة شامية اي سريانية · وكانت لغتهم اما سريانية محضة واما قريبة الى السريانية اكثر من سائر اللغات السامية » « انتشر السريان انتشاراً عجيباً لا في اقطار سوريا وما بين النهرين والعراق وبلاد فارس وملبار بل في الأنحاء اللبنانية » و « أجمعوا على ان عدد السريان في القرنين العاشر والحادي عشر ناهز المليونين من النفوس اما عدد الملكيين في تلك الحقبة فلم يتجاوز النصف مليون .. والموارنة اربعين الفاً » و « عمت عقيدتهم بالطبيعة الواحدة شعوباً جمة غير شعبهم السرياني كالأقباط والأحباش والأرمن والعرب ونصارى مليبار وغيرهم » ·

نشروا عقيدتهم « بين العرب جيرانهم بني غسان ونجران وتغلب ومعد وبني كلب وغيرهم ، وكان بطاركة السريان ينصبون اسقفاً او اكثر لكل قبيلة من تلك القبائل العربية ودعي بعضهم بأساقفة « المضارب » فكانوا يرافقون القبائل العربية المتنقلة ويقيمون الرتب الدينية تحت الخيام » ·

وكان علماء السريان حظوة وحرمة عند الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين والعباسيين وكان منصور بن يوحنا السرياني وزيراً للمالية في عهد الخلفاء الراشدين « أما ابنه سرجون وحفيده يوحنا المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي فقد توليا ديوان الأعمال والجبايات في عهد الخلفاء الأمويين » .

ولا عجب ان كانت علاقات علماء السريان مع خلفاء العباسيين مستحكمة الاستحكام كله « فقد تفجرت ينابيع المعارف على يدهم وسالت الصحف بأقلام مترجميهم ومصنفيهم واطبائهم في طول البلاد وعرضها وأغنوا العالم بنفائس الأسفار التي استخرجوها الى العربية عن اللغات السريانية واليونانية والفارسية والعبرية والهندية » « وكان أولئك العلماء والأطباء يلازمون الخلفاء في بلاطهم ويجلسون الى مائدة طعامهم ويسامرونهم ويعالجون مرضاهم ويرافقونهم احياناً في حروبهم واسفارهم . وكان الخلفاء يجلون أطباءهم ويرحبون بهم ويسنون لهم أعطيات سخية ويعودونهم في منازلهم حين مرضهم ويراسلونهم ويستمحون معهم في قضايا دينهم ويحضرون أحياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم .

وألمع المؤلف الى ذكر رجال العلم والدين من هذه الأمة القديمة وتوسع ما ساعده المقام في الاشارة الى ما أقاموا من بيع وديارات قال : « وعلى رغم ما تهدم من كنائس السريان بالزلازل والحروب ونوازل الدهر فقد بقيت لهم علم ١٢٣٦ عشرون الف كنيسة » ولما تكلم عن خزائن كتبها قال : « غير ان الرزايا الجسيمة التي حلت بديار الشرق في مختلف العصور اجهزت على كل ما فيها ومن فيها فلم تبق ولم تذر . وحسبنا ان نذكر أسماء الطغاة زنكي (؟) وهولاكو وجنكز خان وتيمورلنك وأشباههم ممن أعملوا السيف والنار في البلاد حتى جعلوها خراباً يباباً » .

وبعد فالمؤلف العالم يهنأ على توفيقه بابراز هذه التحفة خدمة للعلم والتاريخ ونرجو ان يوفق الى وضع أمثال هذا التأليف المفيد .

محمد كرد علي

آراء وأنباء

رد على تنبيه

نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي م ١٨ ص ٤٢٩ كلمة بعنوان «اسماء منتخبة لمسميات حديثة» جاء فيها ان «الكِنف (وزان حبر) صالح لأن يطلق على محفظة الطبيب (جزدانه) الذي يضع فيه مقصّه وشفرته وأدواته وما يحتاج اليه احتياجاً قريباً».

ورأيت اليوم في المجلة نفسها م ٢١ ص ٤٧٥ بحثاً وسمه صاحبه النحرير «بالتنبيه والتوجيه» جاء فيه ان الكِنف انما هو من أدوات الراعي ومثله الصفن وانه في مثل هذه المصطلحات يجب ان يرجع الى التاريخ فيسأل أولو العلم به هل كان اطباء الزمن القديم يتخذون جزدانات وما اسم الواحد منها ؟ وعقب كلامه هذا بذكره شيئاً من رسالة لابن فضلان بعث بها الى الناصر لدين الله أو المستنصر بالله يشكو فيها دجّالي ذلك العصر . ومحل الشاهد فيها قول ابن فضلان «وبين يديه المِكَمَّة والملحدان ... ويمضي آخر النهار ومكمّته مملوءة قراضة ...» وذكر أيضاً الحرمدان وقال ان معناها الشنطة العصرية واستشهد عليها بما جاء في النجوم الزاهرة وهو «وعندما يعزلونه من الوزارة يصبح يأخذ غلامه الحرمدان خلفه ويروح يقعد في ديوان الانشاء» وبأن الأمير طرنطاي اسر جماعة من اصحاب منكوتمر وفيهم حامل حرمدانه فوجد في الحرمدان كتباً من الأمراء».

والذي ظهر لي من هذا كله ان المنتقد الفاضل يعترض ما جئت به من هذا الاختيار ويفضل استعمال المِكَمّة والحرمدان على استعمال الكِنف للشنطة العصرية او جزدان الطبيب بحجة ان القدماء من الأطباء قد استعملوها . اي اطباء زمن طرنطاي ومنكوتمر اللذين كان لأمثالها زمام ذلك العصر الذي نفخوا فيه روح العجمة في لغتنا الشريفة وبدأ الانحطاط في اللغة يطغى على كثير من اقلام مؤلفيه . ذلك العصر الذي كانت سلامة التعبير في اللغة تكدّر بمثل قولهم «يصبح يأخذ غلامه الحرمدان خلفه ويصبح يقعد» فهل مثل هؤلاء يوجب حضرة المنتقد

الفاضل ان نرجع اليهم في تقويم كلامنا والى كلماتهم يجب ان نسند اصطلاحاتنا وأوضاعنا الحديثة المعنى ؟ ؟

اني اخترت الكنف لأن الطبيب يضع فيه مقصه وشفرته وأداته كما كان يفعل الراعي فيصح حينئذ استعماله في كليهما · على ان الكنف ليس خاصاً بالراعي في كتب اللغة فقد جاء في اللسان انه وعاء طويل يكون فيه متاع التجار واسقاطهم ومنه قول عمر في ابن مسعود الخ وانه وعاء يضعُ فيه الصائغ اداته · فكما صح عند الأئمة استعماله للتاجر والصائغ فليصح لنا استعماله للطبيب ما دام في كليهما حافظاً للشفرة والمقص ولا ريب ان اختيار السائغ العذب في لغة العرب الفصحى للمعاني الحديثة افضل من اختيار الكلمات المستهجنة ولاسيما اذا كانت دخيلة كالحرمدان · بل وافضل ايضاً من اختيار الكلمات البعيدة في اصل معناها عن المعنى المراد · وقد فسر الأئمة كما في القاموس المحيط المكمة بشبه كيس يوضع على فم الحمار وليس كل ما ما استعمل في العصر الذي عرفت فيه المِكَمَّة والحرمدان للمحفظة يجب علينا الأخذ به ويكون ضالتنا عن رجوعنا الى التاريخ وسؤال أولي العلم ، مادمنا لم نخرج في اختيارنا للمستعذب المستملح عن سنن الفصحى · وقد استعمل اهل ذلك العصر كلمات لم تعذب في أذواق هذا العصر ولم ترعها اسماعهم فهجروها والا فما بالنا لا نحتفظ بالدقدان لما ينصب عليه القدر وبالكردناك او الكردناج للمَصلِيّ من الشواء وبالشاهرك او الشامرغ للفتي من الدجاج وامثال ذلك مما شاع في ذلك العصر واستعمله بعض مؤلفيه فقال اهل اللغة في الأول العَنَّة وقلنا المنصب والمنقل وقلنا في الثاني المصليّ في الفصيح والشاورمة في العامي وهي أخف من الكردناك وقلنا في الثالث الفرّوج ·

السوائل والموائع

ويقول المنتقد الفاضل ان الصواب ان يقال في السوائل الملتهبة : المائعات او الموائع لأن السيلان ليس بشرط أصلي في التسمية · واقول اني لما قلت السوائل الملتهبة راعيت الاسم المشهور عند اهل هذا العصر لهذا الذي يُقذف أيام الحرب ولو قلت الموائع الملتهبة لم يتبادر المعنى المراد لكثير منهم ·

على ان اطلاق السائل على المائع او العكس لا يعد غلطاً مبيناً كما جزم به الكاتب الفاضل لأن الميع والسيلان يتعاقبان على المعنى الواحد قال في اللسان : «ماع الماء والدم والشراب ونحوه يميع مَيْعاً جرى على وجه الأرض جرياً منبسطاً في هيئته ومنه سميت الميعة لأنها سائلة .. وفي حديث جرير ماؤنا يميع وجنابنا مريع .. والميعة سيلان الشيء المصبوب» ويقول في مادة س ي ل «سال الماء والشيء سيلاً وسيلاناً جرى واساله غيره وقال الراغب الاصفهاني في مفرداته «سال الشيء يسيل وأسلته انا قال وأسلنا له عين القطر اي اذبنا له والاسالة حالة في القطر تحصل بعد الاذابة وقال ابن الأثير في النهاية «ماع الشيء يميع وانماع اذا ذاب وسال» .

فكيف يكون بعد هذه النصوص استعمال السوائل في موضع المائعات او الموائع غلطاً مبيناً ؟ وفقنا الله للصواب .

احمد رضا

التنبيه والتوجيه

٤

٥٠ — وجاء في ص ٣٥٣ «ثم علام يستندان في ...» ، قلت : الصواب «إلامَ» فانه يقال استند اليه لا عليه ، وذلك لأن الاستناد يكون من الجوانب لا من الأعالي ، وعلى العكس الاعتماد ، يقال «اعتمد عليه»

٥١ — وورد في ص ٣٨١ ما نصه «ولكنّ كتّابنا كثيراً مايتأثرون بالأسلوب الأعجمي في استعمال اسم الموصول [1] (كذا) فيقول بعضهم مثلاً : سيف الدولة الذي حكم في حلب ، والتدقيق في هذه العبارة يوهم أن هنالك اكثر من سيف دولةٍ حكم في حلب» ، قلت : دققنا النظر فيها فلم نفهم ما فهم الكاتب الفاضل ، وإنْ جاز أن يفهم منه وجود سيوف دولة — وهو بعيد — فليس يدلُّ على أنهم كلهم حكموا في حلب ، لأن الوصف بالذي وصلتها يجعل الصفة — أي حكم

(١) هنا خطأ صوابه [الاسم الموصول] لأنه موصوف وصفة لامضاف ومضاف اليه

على ان اطلاق السائل على المائع او العكس لا يعد غلطاً مبيناً كما جزم به الكاتب الفاضل لأن الميع والسيلان يتعاقبان على المعنى الواحد قال في اللسان : «ماع الماء والدم والشراب ونحوه يميع ميْعاً جرى على وجه الأرض جرياً منبسطاً في هيئته ومنه سميت الميعة لأنها سائلة . . وفي حديث جرير ماؤنا يميع وجنابنا مريع . . والميعة سيلان الشيء المصبوب» ويقول في مادة س ي ل «سال الماء والشيء سيلاً وسيلاناً جرى واساله غيره وقال الراغب الاصفهاني في مفرداته «سال الشيء يسيل وأسلته انا قال وأسلنا له عين القطر اي اذبنا له والاسالة حالة في القطر تحصل بعد الاذابة وقال ابن الاثير في النهاية «ماع الشيء يميع وانماع اذا ذاب وسال» .

فكيف يكون بعد هذه النصوص استعمال السوائل في موضع المائعات او الموائع غلطاً مبيناً ؟ وفقنا الله للصواب .

احمد رضا

التنبيه والتوجيه

٤

٥٠ — وجاء في ص ٣٥٣ «ثم علام يستندان في . . . » قلت : الصواب «إلامَ» فانه يقال استند اليه لا عليه ، وذلك لأن الاستناد يكون من الجوانب لا من الأعالي ، وعلى العكس الاعتماد ، يقال «اعتمد عليه»

٥١ — وورد في ص ٣٨١ ما نصه «ولكنّ كتّابنا كثيراً مايتأثرون بالأسلوب الأعجمي في استعمال اسم الموصول[1] (كذا) فيقول بعضهم مثلاً : سيف الدولة الذي حكم في حلب ، والتدقيق في هذه العبارة يوهم أن هنالك اكثر من سيف دولةٍ حكم في حلب» ، قلت : دققنا النظر فيها فلم نفهم ما فهم الكاتب الفاضل ، وإنْ جاز أن يفهم منه وجود سيوف دولة — وهو بعيد — فليس يدلُّ على أنهم كلهم حكموا في حلب ، لأن الوصف بالذي وصلتها يجعل الصفة — أي حكم

(١) هنا خطأ صوابه [الاسم الموصول] لأنه موصوف وصفة لامضاف ومضاف اليه

حلب — مقصورة على هذا السيف وحده ، ولذلك يصح أن يقال « سيف الدولة الذي حكم في حلب وسيف الدولة الذي حكم في الحلّة على نهر الفرات وهو سيف الدولة صدقة بن دبيس الأسدي المزيدي مؤسس مدينة الحلة واليه نسبت فقيل لها « الحلة السيفية »

٥٢ — وجاء في ص ٣٨٠ أيضاً قول هذا الفاضل « وبما أنّ الكلام في اغلاط العوام خليق بنا ان نوسع » ، وفي هذا التعبير أوهام وصوابه « ولما أنّ الكلام في أغلاط العوام كنا خليقين أن نوسع » وذلك باحلال « لِما » بكسر اللام وتخفيف الميم محل « بما » وهذا من أسلوب الجاحظ وبحذف « الفاء » لعدم وجود الشرط الذي يستوجبها ، وبادخال فعل في الجملة ليتعلق به « لما أنّ » ويجعلنا خليقين جديرين قمينين لا جعل التوسيع خليقاً بنا ولا اختيار له ولا إرادة ولا ذات .

٥٣ — وجاء في ص ٤٩١ « إنه ليس في حاجة الى غيرها » وهو مخالف لأسلوب القرآن الكريم وأساليب الفصحاء وذلك أنّ القرآن الكريم والعرب يستعملان الحاجة استعمالين اذا كانت مع الحرف الجار ، أحدهما استعمالها في الجملة الاسمية وإذ ذاك يجب جعل الحاجة في المحتاج فيقال « لي وبي وفي نفسي وفي صدري حاجة ، وليس بفلان حاجة » والاستعمال الآخر في الجملة الفعلية او مع شبه الفعل نحو « جاء اليهم في حاجة » وذهب في حاجة وأرسله في حاجة ، وقول الشاعر :

إذا كنت في حاجة مُرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

أي اذا كنت مُرسلاً أحداً في حاجة فأرسل حكيماً ... وفي هذا الاستعمال وحده تجر الحاجة بحرف الجرّ ، ومن الأول قوله تعالى « إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها . ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم »

٥٤ — وورد في ص ٤٩٥ « من الأشجار التي تنبتها الطبيعة » قلت : إن العرب قالت « الأشجار البرية » وهي ضد المزروعة فلا حاجة بهم إلى نسبة إنباتها الى الطبيعة ، قال المبرد في وصف الضال « والضال : السدر البريّ وما كان من السدر على الأنهار فليس بضال [1] » فالذي على الانهار مغروس .

(١) كامل المبرد ج ١ ص [٦٩] من طبعة الدلجموني الأزهري .

٥٥ — وورد في ص ٥٠٦ « بحمده وآله آمين » والصواب بحمده وآله آمين » والنقد واضح .

٥٦ — وجاء في ص ٥٠٦ وما بعدها ترجمة الأمير فخر الدين يوسف بن أبي الحسن محمد الحموئي الجويني ، منقولة من عدة مراجع وقد رأينا مرجعاً جديداً لترجمة هذا الكبير ، قال ابن الفوطي : « فخر الدين ابو المظفر يوسف بن شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن ابي الفتح عمر بن علي بن محمد بن حمويه بن محمد بن محمد بن نصر بن الأمير حمويه بن علي الجويني المصري الأمير ، من البيت العريق في المشيخة والتصوف والامارة واصله[1] من بحراباذ من رستاق جوين من اعمال نيسابور ، انتقل الى مصر وسكنها وصار شيخ الشيوخ بها وأعقب أولاداً نجباء ، وكان فخر الدين في خدمة الكامل بن العادل وانفذه رسولاً الى بغداد في ايام الناصر وكان يلبس العامة فلما رأوا شهامته خلع عليه القباء والقلنسوة من دار الخلافة وأعطي الكوسات والأعلام وقيل [له] : ما تصلح أن تكون الا أميراً[2] . واستمر حاله في اللباس مدة ايام الكامل وله غزوات في الفرنج واستشهد بالمنصورة في ذي القعدة سنة سبع واربعين وستمائة[3] » .

٥٧ — وجاء في ص ٥٢٤ « ثم وقع الجبل[4] بيد احد امراء الأطراف وهو احمد بن مروان أبو نصر الكردي صاحب ديار بكر وميافارقين ... » ذكر ذلك الكاتب الفاضل بعد نقله خبر اهداء السلطان طغرلبك الجبل الياقوت المذكور الى الخليفة القائم بأمر الله ، وسياقة التاريخ توجب تأخير خبر الاهداء عن خبر الامتلاك ، ألا تراه — أعني كاتب المقالة — نقل بعد ذلك قوله « وأنفذ[5] السلطان طغرلبك هدايا عظيمة ومنها الجبل الياقوت الذي كان لبني بويه وابتاعه

(١) لعل الاصل [وأبوه أصله] (٢) قلت : هذه من غرائب الحكايات وتؤيد ما قيل في سيرة أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أنه كان آية في اختيار الرجال ومعرفة أهل الفضل وذوي الكمال (٣) كتاب « تلخيص مجمع الآداب المرتب على معجم الأسماء في معجم الألقاب» ص٢٨٢ من نسختنا الخطية المنسوخة على نسخة فطغرافية في المكتبة العامة ببغداد وهذه الفطغرافية مصورة على نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق . (٤) هو فص ياقوت عظيم كتبت المقالة النفيسة فيه . (٥) الضمير يعود الى الأمير أحمد بن مروان المذكور

من ورثة الملك أبي منصور بن أبي طاهر ...» وقال سبط ابن الجوزي في ترجمة الأمير الكردي المذكور «وكان عنده الجبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بويه اشتراه من ورثة الملك ابي منصور بن ابي طاهر وأنفذه الى طغرلبك مع هدايا كثيرة تساوي ثلاثمائة الف دينار ومعها مائة الف دينار عيناً . وهذا الجبل الياقوت هو الذي قدمه السلطان للخليفة لما نزل من الحديثة واجتمع به في النهروان [1]» .

فالصواب إذن أن يقال «وكان الجبل الياقوت قد وقع بيد أحد الأمراء ...» ليطّرد التاريخ ، وقد فات الكاتب الفاضل شيء من أولية «الجبل الياقوت» قال ابراهيم بن محمد البيهقي «قال الكسائي : دخلتُ على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وأمر بتفريقه في خدم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله وكان كثيراً ما يحدثني فقال : هل علمت مَن أول من سنّ هذه الكتابة في الذهب والفضة ؟ قلت : يا سيدي هذا عبد الملك بن مروان . قال : فما كان السبب في ذلك ؟ قلت : لا علم لي غير انه أول مَن أحدث هذه الكتابة . فقال : سأخبرك ... ثم رمى بالدرهم الى بعض الخدم وقال : عليّ بالخازن . فأقبل الخازن ، فقال : ائتني بالجبل . فأتاه بحقّ فيه خاتم ياقوت يتقد كأنه مصباح ، فقال للخادم : ضع لنا هذا على هذا الدرهم الذي معك وليكن على مقدار اصبعي . ثم قال : أتعرف هذا الخاتم ؟ فقلت : لا ياسيدي . قال : إنّ ملك الترك كان غزا في زمن أبي مسلم سمرقند وعليها عامل له يقال له صبيح بن اسماعيل ومع ملك الترك قائد لملك الصين كان جليلاً عنده عظيم القدر بمنزلة ولي العهد أمدّه به اصهر كان بينهما في سبعين الف رجل وان صبيح بن اسماعيل ظفر بعسكر التركي وهزمه وغنم عامة ما فيه وأسر كافة رجاله وأسر القائد الصيني فيمن أسر فكان هذا الخاتم في اصبعه [2] فأخذه منه وبعث به الى ابي مسلم فبعث به ابومسلم

(١) أصول التاريخ والأدب [مج ٣٠ ب ص ١٩٦] نقلا من مرآة الزمان. (٢) وهذا الخبر يخالف ما نقله الكاتب الفاضل من مروج المسعودي من كون الجبل من جواهر الأكاسرة وكون الرشيد اشتراه بأربعين الف دينار وليت شعري ماالذي ذكر المسعودي في أخبار الزمان من تاريخ ذلك الفص الياقوت الذي أدخله في تاريخ « خواتم ملوك الفرس » من كتابه ذلك ؟

الى أبي العباس فأعجب به اعجاباً شديداً ودعا له من يبصره من الجوهريين والمقوّمين وسألهم عن قيمته فلم يُحسنوا ان يقوّموه ، فلم يزل مرفوعاً في خزانته الى أن مات فلما أخرج ما كان في خزانته من الجواهر والذخائر لتباع أخرج هذا الخاتم فنودي عليه وطلبه المنصور وعيسى بن موسى وتزايدا عليه فبلغ به المنصور اربعين الف دينار وحرص على شرائه واشتدت عليه مزايدة عيسى اياه فيه ، فلما رأى عيسى ان ذلك قد غاظه أمسك عن مزايدته فاشتراه المنصور بأربعين الف دينار فما ظنك بشيء يشتريه المنصور بهذه الجملة في ذلك الزمان وكان الدرهم أعزّ من الدينار في زماننا ، فلم يزل الخاتم في خزانته الى أن ولي المهدي فأخرجه ووهبه لي من دون أخي الهادي وذلك أنه جعل ولاية العهد له فأرضاني عن ولاية العهد بهذا الخاتم وبأشياء أخر فلما ولي الهادي طلب مني الخاتم فمنعته ولجّ فيه لجاجاً شديداً وبعث الي سعيد بن سلم الباهلي يدعوني فعلمت لِمَ يدعوني فأخذت هذا الخاتم وأخرجته من اصبعي فلما توسطت الجسر قلت لسعيد : انظر الى هذا الخاتم . ثم رميت به في دجلة ؛ ومضى سعيد الى الدار فأخبر الهادي بما كان مني فبعث بالغواصين الى الموضع الذي ألقيت فيه الخاتم فطلبوه أشد طلب فلم يقدروا عليه فلما صار الأمر الينا بعثنا الغواصين فأخرجوه فها هو ذا عندي . ثم قال : ياعلي أتعبناك بذكر هذه الأموال وقد عوضناك لاصغائك الينا بخمسين الف درهم . فحملت بين يدي .

قال ابراهيم البيهقي : وحكي بعد ذلك أنّ هذا الخاتم صار الى المأمون فوهبه لبوران ابنة الحسن بن سهل ذي الرياستين ثم صار الى المعتصم ثم الى المعتز والمستعين فنقشه المستعين ثم صار كل خليفة ينقش عليه اسمه حتى نقصت من قيمته وهو الآن عند الخليفة المقتدر بالله [1] » .

قلت : وقد صار الجبل الياقوت المذكور الى علي بن بويه الديلمي على ما جاء في أخبار ابن مكتوم الشيرازي فانّ يوسف بن وجيه احد ارباب الدولة والسلطان في ذلك الزمان سأل ابن مكتوم المذكور عما ادّخره علي بن بويه المقدم ذكره

(١) ابراهيم البيهقي في المحاسن والمساوئ [ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠] .

من الذخائر والجواهر فقال ابن مكتوم «لا أعلم الا ما سمعت أنّ الجبل الذي كان للمقتدر قد وصل اليه ، فقال: وما الجبل؟ قال: فصّ ياقوت أحمر فيه خمسة مثاقيل[1] .

ولا يعلمُ بعد ذلك ما صار اليه ذلك الجبل الياقوت أما تكرار اسم «الجبل» في التواريخ فلا يعني أنه ذلك الجبل بعينه لأنّ الجبل كان خاصاً ثم صار عاماً لكل جوهرٍ كبير من الياقوت وغيره من الحجارة الكريمة ، وإلا فكيف يصير الجبل من خزائن دار الخلافة العباسية الى دار الخلافة الفاطمية بالقاهرة ولم تجر عليها حادثة كحادثة أرسلان البساسيري . قال سبط ابن الجوزي في ترجمة ابي محمد عبد الله بن يوسف العاضد بالله الفاطمي «وكان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا ملك مما قد جمع على طول السنين فمنه القضيب الزمرّد وطوله قبضة ونصف والجبل الياقوت الأحمر والدرّة اليتيمة مثل بيض الحمام والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر وزنتها أربعة عشر مثقالاً[2] » ولو كان لذلك الجبل اتصال «بجبل بني العباس لنبّه عليه سبط ابن الجوزي كما نبه قبل ذلك . وكذلك سكت عن الاشارة من تأخر زمنه عن ابن الأثير وسبط ابن الجوزي كأبي شامة فانه قال «وحصل صلاح الدين على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد» ثم نقل بعض كلام ابن الأثير عز الدين[3] وذكر المؤلف المذكور أنّ صلاح الدين بعث فيما بعث به من النفائس الغريبة الى نور الدين محمود بن زنكي حجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل[4] .

هذه تعليقاتي على ما قرأته من المجلد الثامن عشر من هذه المجلة الزاهرة ، وقد اقتصرت فيها على ما لم أجد بدّاً من التعليق عليه في أثناء قراءتي اياه ، وسأبدأ التعليق على المجلد التاسع عشر مستعيناً الله تعالى مستهدياً له — عز وجل — الى السبيل السوي .

(بغداد) **الدكتور مصطفى جواد**

---

(١) أبو علي التنوخي في [نشوار المحاضرة ج٨ص١٥١] . (٢) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان [ص١٨١] . (٣) كتاب الروضتين [ج ١ص ٢٠٠] (٤) المرجع المذكور ص[٢١٩]

الفهرس العام لمواد المجلد الحادي والعشرين

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الأعلام

لكتاب مقالات المجلد الحادي والعشرين

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الجزء الحادي عشر والثاني عشر من المجلد الحادي والعشرين

الصفحة

مخطوطات ومطبوعات

آراء وأنباء